١٢ - سورة يوسف عليه السلام

هي مكية وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط، وما قيل من أن الثلاث الاولى منها مدنيات فلا تصح روايته ولا يظهر له وجه وهو يخل بنظم الكلام، وقد راجعت الاتقان فاذا هو ينقله ويقول: وهو واه جداً فلا يلتفت اليه، ومن العجائب

(٥) أن يذكر هذا الاستثناء في المصحف المصري ويزاد عليه الآية السابعة.

والمناسبة بينها وبين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل (ع.م) والاستدلال في كل منهما على كونها وحياً من الله تعالى دالا على رسالة محمد خاتم النبيين ﷺ بآيتين متشابهتين، ففي آخر قصة نوح من الاولى (١٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وفي آخر الثانية (١٠٢ ذلك

(١٠) من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) وإشارة التأنيث في الاولى للقصة المنزلة بهذا التفصيل والبلاغة العجيبة وقيل للسورة، وإشارة التذكير في الثانية لقوله تعالى في أول السورة (نحن نقص عليك أحسن القصص) والفرق بين قصتها وقصص الرسل في التي قبلها وفي سورة الاعراف وغيرها ان تلك قصص للرسل مع أقوامهم في تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها، وعاقبة من آمن بهم ومن كذبهم،

(١٥) لانذار مشركي مكة ومتبعيهم من العرب، وقد كررت بالاساليب والنظم المختلفة لما فيها من أنواع التأثير ووجوه الاعجاز التي تقدم بيانها في مباحث الوحي المحمدي ثم في بحث التحدي بعشر سور مثله مفتريات. وأما سورة يوسف فهي قصة نبي واحد وجد في غير قومه قبل النبوة صغير السن وبلغ أشده واكتهل فنبيء وأرسل ودعا الى دينه، وكان مملوكا ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم، فأحسن الادارة والتنظيم، وكان خير

(٢٠) قدوة للناس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة وطوارئها وطوارقها، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة كما نجمله في أولها ونفصله إن شاء الله في خاتمتها. وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه، ثم كانت الى تمام المئة في تاريخ يوسف وختمت باحدى عشرة آية في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لاجله من إثبات رسالة خاتم النبيين وإعجاز كتابه والعبرة العامة بقصص الرسل (ع.م)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٥)

فاتحة هذه السورة هي فاتحة سورة يونس إلا وصف القرآن بالمبين هنا وبالحكيم هنالك ، وهما في أعلى ذروة من البيان ، وأقصى مدى من الحكمة والإحكام ، اختير في كل من السورتين ما يناسبها ، فسورة يونس موضوعها أصل الدين وهو توحيد الالوهية والربوبية وإثبات الوحي والرسالة باعجاز القرآن والبعث والجزاء وهي من الحكمة . وهذه موضوعها قصة نبي كريم تقلب في أطوار كثيرة كان قدوة خير وأسوة حسنة فيها كلها ، فالبيان بها أخص .

﴿ ١ ـ الر ، تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي آيات هذه السورة هي آيات الكتاب المبين الظاهر بنفسه في حقيقته وإعجازه وكونه ليس من كلام البشر ، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين ومصالح الدنيا ، وقال مجاهد : بين الله حلاله وحرامه ، وقال الزجاج : مبين للحق من الباطل والحلال من الحرام . تقول العرب أبان الشيء فعلا لازما بمعنى ظهر واتضح . وتقول أبان الرجل كذا إذا أظهره وفصله من غيره مما شأنه أن يشتبه به ، ويجوز الجمع بينهما هنا كما قلنا آنفا

﴿ ٢ ـ إنا أنزلناه ﴾ أي الكتاب على رسولنا النبي العربي حال كونه ﴿ قرآنا عربيا ﴾ أي يبين لكم بلغتكم العربية ما لم تكونوا تعلمون من الدين وأنباء الرسل والعلم والحكمة والادب والسياسة ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ معانيه أيها العرب ، وما ترشد اليه من مطالب الروح

ومدارك العقل ، وتزكية النفس ، وتثقيف مدارك الوجدان والحس ، واصلاح الاجتماع العام ، المراد بها اصلاح الحال ، وسعادة المآل ، والقرآن اسم جنس يطلق على بعضه كالسورة الواحدة وقيل انه المراد هنا ، وعلى جملته كلها

﴿ ٣ ـ نحن نقص عليك ﴾ أيها الرسول المصطفى ﴿ أحسن القصص ﴾ (٥) أي نحدثك أحسن الاقتصاص والتحديث بيانا وأسلوبا وإحاطة ، أو أحسن ما يقص ويتحدث عنه موضوعا وفائدة ، ويجوز الجمع بين المعنيين . فالقصص مصدر أو اسم من قص الخبر إذا حدث به على أصح الوجوه وأصدقها ، لانه من قص الاثر واقتصه إذا تتبعه وأحاط به خبراً ، كأنه قال نقصه عن اقتصاص وإحاطة ، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول ، فيكون القصص بمعنى المقصوص من الاخبار والاحاديث

(١٠) ﴿ بما أوحينا اليك هذا القرآن ﴾ أي بايحائنا اليك هذه السورة من القرآن ، إذ هو الغاية العليا في حسن فصاحته وبلاغته وتأثيره وحسن موضوعه ، ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ أي وان الشأن وحقيقة ما يتحدث عنه من قصتك أنت انك كنت من قبل ايحائنا إياه اليك من جماعة الغافلين عنه من قومك الاميين الذين لا يخطر في بالهم التحديث بأخبار الانبياء وأقوامهم ، وبيان ما كانوا عليه (١٥) من دين وتشريع كيعقوب وأولاده في بداوتهم ، ولا ما كانت الامم فيه من ترف وحضارة كالمصريين الذين وقع يوسف بينهم ، وحدث لهم ما حدث في بعض بيوتاتهم العليا ثم في بيت الملك وادارة نظام الدولة

(٤) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٥) قَالَ (٢٠) يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى

آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

هذه الآيات الثلاث في بيان ماوقع بين يوسف في طفولته ، وأبيه يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام ، فاستدل أبوه برؤياه على أنه سيكون له شأن عند الله وعند الناس ، فتعلق به أمله، وشغف به قلبه ، فكان مبدأ لكل (٥) ماحدث له من الوقائع المحرقة ، ومن العاقبة المشرقة ، فهذه الرؤيا لايظهر تأويلها الا في آخر هذه الرواية، وأصحاب القصص المنتحلة في عصرنا يحتذون أسلوب قصة يوسف في سورته هذه بوضع خبر مشكل خفي يشغل فكر القارىء في أولها ، ويظل ينتظر وقوع مايحل اشكاله، ويفسر مآله، فلايصيبه الا في آخر القصة، وقد قال النبي ﷺ « ان الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن (١٠) ابراهيم » رواه أحمد والبخاري وغيرهما ، وفي رواية «الكريم بن الكريم» الخ

﴿ ٤ ـ اذ قال يوسف لأبيه ياأبت ﴾ هذا شروع في بيان أحسن القصص فهو بدل منه يشتمل عليه . والاكثرون يعدونه بدء كلام جديد يقدرون له متعلقا: اذكر أيها الرسول اذ قال يوسف لأبيه : ياأبت الخ والتاء هنا بدل من ياء المتكلم وهو مسموع من العرب في نداء الاب والام والفصيح كسرها وسمع فتحها (١٥) وضمها أيضا ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ﴾ في المنام بدليل مايأتي بعد، ثم بين الصفة التي رأى عليها هذه الجماعة السماوية بقوله ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ والسجود التطامن والانحناء الذي سببه الانقياد والخضوع أو المبالغة في التعظيم وأصله قولهم : سجد البعير ـ إذا خفض رأسه لراكبه عند ركوبه ، وكان من عادات الناس في تحية التعظيم في بلاد فلسطين ومصر وغيرهما، واستعمل في القرآن بمعنى (٢٠) انقياد كل المخلوقات لارادة الله تعالى وتسخيره وهذا سجود طبيعي غير إرادي ، ولا يكون السجود عبادة إلا بالقصد والنية من الساجد للتقرب الى من يعتقد أن له عليه سلطانا ذاتيا غيبياً فوق سلطان الاسباب المعهودة . وكان الاصل في التعبير

عن سجود هذه الكواكب التي ليس لها إرادة أن يقول رأيت كذا و كذا ساجدة لي ، ولكنه أراد أن يخبر والده أنه رآها ساجدة سجودا كأنه عن إرادة واختيار كسجود العقلاء المكلفين فأعاد فعل رأيت وجعل مفعوله ضمير العقلاء وجمع صفة هذا السجود جمع المذكر السالم ، فعلم أبوه أن هذه رؤيا إلهام، لا يمكن أن تعد من
(٥) أضغاث الاحلام ، التي تثيرها في النوم الخواطر والافكار، ولا سيما خواطر غلام صغير كيوسف يخاف أبوه أن يأكله الذئب ، وفي سفر التكوين أنه كان قد بلغ السادسة عشرة وهو بعيد

٥ـ﴿ قال يابني لاتقصص رؤياك على إخوتك ﴾ يابني تصغير الكلمة ابن في نداء العطف والتحبب، وقص الرؤيا على فلان كقص القصة معناه أخبره بها على وجه
(١٠) الدقة والاحاطة كما تقدم آنفا، وقد يفهم منه المعبر البصير المعنى المناسب للرائي القاص أو المعنى الذي تؤول اليه في المستقبل إذا كانت رؤيا حق كما يقع للانبياء عليهم السلام قبل وحي التكليم ومقدماته ، وقد فهم هذا يعقوب واعتقد أن يوسف سيكون نبياً عظيما ذا ظهور وسلطان يسود به أهله حتى أباه وأمه وإخوته ، وخاف أن يسمع إخوته ماسمعه ويفهموا مافهمه فيحسدوه ويكيدوا لاهلاكه فنهاه أن يقص رؤياه
(١٥) عليهم وعلله بقوله ﴿ فيكيدوا لك كيداً ﴾ أي إن تقصصها عليهم يحسدوك فيدبروا ويحتالوا للايقاع بك تدبيراً شيطانياً يحكمونه بالتفكير والروية ، كما يفعل الاعداء في المكايد الحربية ، يقال كاده إذا وجه اليه الكيد مباشرة ، و كاد له اذا دبر الكيد لأجله سواء كان لمضرته وهو المراد هنا ، أو لمنفعته ومنه قوله تعالى في تدبير يوسف لابقاء أخيه عنده (كذلك كدنا ليوسف) وسيأتي بيان هذه المقابلة
(٢٠) ﴿ إن الشيطان للانسان عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة بينهما لا تفوته فرصة لها فيضيعها . هذا بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد وهو أنه من وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس عند ماتعرض له داعية من هوى النفس وشرها الحسد الغريزي في الانسان ، كما عبر عنه يوسف بعد وقوعه وسوء تأثيره وحسن عاقبته بقوله (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) وفي قصته من سفر التكوين

أن يوسف قص رؤياه على أبيه وإخوته جميعا من أول وهلة . وما قصه الله هو الحق الذي روي بالتواتر القطعي وسفر التكوين غير مروي بالاسانيد المتصلة المتواترة، ولا دليل على أن أصله وحي من الله تعالى، ولكنه كتاب قديم التاريخ له قيمة لا تعصمه من الخطأ

٦ ـ ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ أي ومثل ذلك الشأن الرفيع والمجد البديع الذي تمثل لك في رؤياك، يجتبيك ربك لنفسه ويصطفيك على آلك وغيرهم فتكون من (٥) عباده المخلصين (بفتح اللام كما وصفه الله فيما يأتي قريبا) فالاجتباء افتعال من جبيت الشيء إذا خلصته لنفسك، والجباية جمع الشيء النافع كالماء في الحوض والمال للسلطان ولي الامر ﴿ ويعلمك من تأويل الاحاديث ﴾ أي يعلمك من علمه اللدني تأويل الرؤى وتعبيرها أي تفسيرها بالعبارة والاخبار بما تؤول اليه في الوجود، وهو تأويلها كما سيأتي حكاية لقول يوسف لابيه (هذا تأويل رؤياي من قبل قد (١٠) جعلها ربي حقا) أو ماهو أعم من ذلك من معاني الكلام، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها، وقال بعض المفسرين وتبعه غيره إن الرؤيا حديث الملك إن كانت صادقة وحديث الشيطان إن كانت كاذبة، وهذا القول يخالف الواقع فان رؤيا يوسف ليس فيها حديث وكذا رؤيا صاحبيه في السجن ورؤيا ملك مصر، وانما سميت رؤيا لانها عبارة عما يرى في النوم كما ان (١٥) الرؤية اسم لما يرى في اليقظة فهما كالقربة والقربى وفرق بينهما للتمييز، وقد يسمع رائيها أحاديث رجل يحدثه ولكن تأويل رؤياه يكون لجملة ما رآه وسمعه لا لما سمعه فيها فحسب، كما يقصه بحديثه على من يعبره له . أي يعبر به من مدلول حديثه اللفظي إلى مايؤول اليه، وقد يكون قريبا كرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك، وقد يكون بعيداً كتأويل رؤيا يوسف نفسه، ولفظ الاحاديث اسم جمع سماعي (٢٠) كالأباطيل . والرؤيا الصادقة ضرب من إدراك نفس الانسان أحيانا لبعض الاشياء قبل وقوعها باستعدادها الفطري، إما بعينها وهو قليل، وإما بمثال يدل عليها وهو المحتاج إلى التأويل، وسنبين الفرق بين الرؤيا الصادقة وبين أضغاث الاحلام، ورأي علماء الافرنج ومقلديهم فيها في خلاصة السورة الاجمالية إن شاء الله تعالى،

وتعليم الله التأويل ليوسف إيتاؤه إلهاما وكشفا للمراد منها أو فراسة خاصة فيها، أو علما أعم منها، كما يدل عليه قوله الآتي لصاحبي السجن (١٢ : ٣٦ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي) روي عن ابن زيد انه قال في تأويل الاحاديث: تأويل العلم والحلم وكان يوسف من أعبر الناس، (٥) وقال الزجاج تأويل أحاديث الامم السالفة والكتب المنزلة

زعم الزمخشري وتبعه مقلدوه ان هذه الجملة كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك ويتم نعمته عليك وبنى هذا على ما فهمه من دلالة الرؤيا على الاجتباء فقط، وما هذا الفهم إلا من تأثير قواعد النحو، والذي نجزم به ان يعقوب عليه السلام فهم من هذه الرؤيا فهما مجملا كل ما يبشر به ابنه رائيها، (١٠) وأما كيد اخوته له اذا قصها عليهم فقد استنبطه استنباطا من طبع الانسان، وعداوة الشيطان. فلما حذره من الاستهداف لذلك باثارة حسدهم، قفى عليه ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتباء ربه الخاص به، ومن تأويل الاحاديث وهو الذي سيكون وسيلة بينه وبين الناس الى رفعة قدره وعلو مقامه، فهو معطوف على الاجتباء مشترك معه في البشارة

(١٥) ثم عطف عليه ﴿ويتم نعمته عليك﴾ بالنبوة والرسالة والملك والرياسة ﴿وعلى آل يعقوب﴾ وهم أبواه وإخوته وذريتهم (وأصل الآل أهل بدليل تصغيره على أهيل، وهو خاص في الاستعمال بمن لهم شرف وخطر في الناس كآل النبي صلى الله عليه وسلم وآل الملك ويقال لغيرهم أهل) باخراجهم من البدو، وتبوئهم المقام الكريم بمصر، ثم بتسلسل النبوة في أسباطهم الى أجل معلوم

(٢٠) ﴿كما أتمها على أبويك من قبل﴾ أي من قبيل هذا العهد أو من قبلك ﴿إبراهيم واسحق﴾ هذا بيان لكلمة أبويك وهما جده وجد أبيه، وقدم الاشرف منهما، وهذا الاستعمال مألوف عند العرب وغيرهم وكانوا يقولون للنبي ﷺ يا ابن عبد المطلب بل تالها هو أيضا، وهذا التشبيه مبني على ما كان يعلمه يعقوب من وعد الله لابراهيم باصطفاء آله، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، وانما علم من رؤيا يوسف انه

هو حلقة السلسلة النبوية الاصطفائية بعده من أبنائه ، فلهذا علل البشارة بقوله ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ أي عليم بمن يصطفيه حكيم باصطفائه، وبإعداد الاسباب وتسخيرها له، وكان هذا العلم من يعقوب بما بشر الله به أبويه لها ولذريتهما، وبدلالة رؤيا يوسف على أنه هو حلقة السلسلة الذهبية لهم ، هو السبب كما قلنا لزيادة حبه له وعطفه وحرصه عليه، الذي هاج ما كان يحذره من حسد اخوته وكيدهم له، (٥) ولكونه لم يصدق ما زعموه من أكل الذئب له، ولم ينقطع أمله منه، بل لم ينقص ايمانه بما أعده الله له ولهم به، ولكن علمه بذلك كان اجماليا لا تفصيليا ، وقد جاءت قصته من أولها الى آخرها مفصلة لهذا الاجمال ، تفصيلا هو من أبدع بلاغة القرآن ، وزاد بعض المفسرين في التشبيه إنجاء إبراهيم من النار وإنجاء اسحق من الذبح ، ولكن التحقيق أن الذبيح إسماعيل لا اسحق كما يدل عليه قوله تعالى بعد قصته (١٠) من سورة الصافات (وبشرناه باسحق) وكون القصة كانت في الحجاز وهي الاصل في اضاحي منى هناك ، وإنما الذي نشأ في الحجاز اسماعيل لا اسحق كما هو معلوم بالتواتر

---

(٧) لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٨) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ (١٥) أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ

هذا شروع في القصة بعد مقدمتين أولاهما في صفة القرآن وكونه تنزيلا من الله دالا على رسالة من أنزل عليه، وكونه عربيا تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه وكون النبي ﷺ كان من قبله غافلا عما جاءه فيه لا يدري منه شيئا ، ونتيجة (٢٠) هاتين القضيتين تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالى (١٠٢ ذلك من أنباء الغيب) الخ

والمقدمة الثانية رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهما إجماليا كليا كما بيناه آنفا، وبنى عليه ان حذره وأنذره ما يستهدف له قبله من كيد إخوته، وبشره بحسن عاقبته، ونتيجة هاتين القضيتين ماقاله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له (١٠٠ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) الخ

(٥) فمثل هذا الترتيب المنطقي العقلي البديع يتوقف نظمه وسرده على سبق العلم بالقصة وتتبع حوادثها والاحاطة بدقائقها، ثم على وضع ترتيب ينسق عليه الكلام كالقصص الفنية المتكلفة، ثم توضع له المقدمة والخاتمة في الغاية التي ألفت القصة لأجلها، فتجعل الاولى براعة مطلع، والآخرة براعة مقطع، فقل لمن جهل سيرة محمد ﷺ وتاريخه: إن محمدا لم يكن قارئا ولا كاتبا، ولا خطيبا ولا شاعرا،

(١٠) ولا مؤرخا، ولا راويا، ولا حافظا للشعر ولا ناثرا، بل كان كما قال الله تعالى غافلا عن هذه القصة وكل ماجاء في القرآن، وكانت تنزل عليه السورة القصيرة فيعجل بقراءتها لئلا ينسى منها شيئا، فنهي عن ذلك عند ما عرض له في أثناء نزول سورة القيامة بقوله تعالى (٧٥ : ١٦ لاتحرك به لسانك لتعجل به ١٧ إن علينا جمعه وقرآنه ١٨ فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ١٩ ثم إن علينا بيانه) وبقوله (٢٠ : ١١٤ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن

(١٥) يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علما) وقوله (سنقرئك فلا تنسى) وقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فلما ضمن ربه له أمن ضياع شيء منه بعدم حفظه عند تلقيه، أو نسيانه بعده، زال خوفه، وترك الاستعجال بقراءته

وهذه السورة الطويلة نزلت عليه دفعة واحدة كأكثر السور المكية حتى الطوال منها كسورة الانعام فلم يكن يدري من هذا الترتيب والنسق لها ولا من

(٢٠) موضوعها شيئا قبل وحيها، ولا يحيط به إلا ان يكمل له تلقيها عن الروح الأمين عليهما السلام، ولكن العجب أن يغفل عنه أو يجهله أحد من المفسرين فرسان البلاغة الفنية، والآن وقد بينته لقارىء هذا التفسير ليفطن لدلالة السورة بنظمها وبلاغتها على إعجاز القرآن اللفظي، وبما فيها من التشريع وعلم الغيب على إعجازه المعنوي، وبالاعجازين كليهما على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته،

أشرع في تفسير القصة متبرئا من حولي وقوتي إلى حول الله وقوته ، وهي :

٧ ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم ، للسائلين عنها، من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها، لانهم هم الذين يعقلون الآيات (٥) ويستفيدون منها ، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه ، فان للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها ، فاخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب ، ولو لم يلقوه لما وصل الى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته أمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها ، ولو لم تخب في كيدها (١٠) وكيد صواحبها من النسوة لما ألقي في السجن لاخفاء هذا الامر ، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا ، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وله وجعله على خزائن الارض، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه واخوته وأهلهم أجمعين من المجاعة ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لما تم قول أبيه له (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) (١٥) فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقا، وباطنها مشرقا ، وبدايتها شرا وخسرا ، وعاقبتها خيرا وفوزا ، وصدق قول الله عز وجل (والعاقبة للمتقين) فهذه أنواع من آيات الله في القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة ، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة ، كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف وعلمه يكذبهم بدعوى أكل الذئب له ، ومن شهادة الله له بالعلم بقوله (وإنه لذو (٢٠) علم لما علمناه) الآية ، ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر قاصدة أرض كنعان . ومن علم يوسف بتأويل الاحاديث ، ومن رؤيته لبرهان ربه ، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك ، ثم من علمه بأن إلقاء قميصه على

أبيه يعيده بصيراً بعد عمى سنين كثيرة ، في القصة مجال لسؤال السائلين عن كل هذه المعاني من العلم الروحاني ، وهي أخفى مما قبلها ، وأحق بالسؤال عنها .

وقيل ان المراد بالسائلين جماعة من اليهود جاؤا مكة وسألوا النبي ﷺ سؤال امتحان عن نبي كان بالشام أخرج ابنه الى مصر فبكى عليه حتى عمي؟ فأنزل الله تعالى عليه سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة ، وروي ان بعضهم لقنوا بعض أهل مكة أن يسألوه عن قصة يوسف ، وروي ان بعضهم سألوه عن أسماء الكواكب الأحد عشر التي رآها يوسف في منامه ولم يكن يعرفها فنزل عليه جبريل فلقنه اياها فجاءت موافقة لما في التوراة ، وذكروا هذه الاسماء في تفاسيرهم ، فالمراد بالآيات على هذا دلائل نبوة محمد ﷺ ولا يصح من هذه الروايات شيء بل هي من الاسرائيليات ، وليس في التوراة ذكر لأسماء هذه الكواكب ، وقصة يوسف في القرآن موافقة لجملة ما في سفر التكوين ومخالفة له في بعض دقائقها وسنذكر من ذلك غير ما ذكرنا آنفا

٨ ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾ أي ان في قصتهم لآيات في الوقت الذي ابتدؤا فيه بقولهم جازمين مقسمين : ليوسف وأخوه الشقيق له واسمه بنيامين ، أحب الى أبينا منا كلنا (١) ﴿ونحن عصبة﴾ أي يفضلهما علينا بمزيد المحبة على صغرهما وقلة غنائهما والحال اننا نحن عصبة عشرة رجال أقوياء أشداء معتصبون نقوم له بكل ما يحتاج اليه من أسباب الرزق والحماية والكفاية ﴿ان أبانا لفي ضلال مبين﴾ انه لفي تيه من المحاباة لهما ضل فيه طريق العدل والمساواة ضلالا بينا لا يخفى على أحد ، اذ يفضل غلامين ضعيفين من ولده لا يقومان له بخدمة نافعة ، على العصبة أولي القوة والكسب والنجدة . وهذا الحكم منهم على أبيهم جهل مبين وخطأ كبير ، لعل سببه اتهامهم اياه بافراطه في حب أمهما من قبل ، فيكون مثاره الاول اختلاف

(١) الاخبار باسم التفضيل مفرداً كما هنا يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع مذكراً ومؤنثا ، والمعرف بأل تجب فيه المطابقة وبالاضافة يجوز فيه الوجهان

الامهات بتعدد الزوجات ولا سيما الاماء منهن (*) وهو الذي أضلهم عن غريزة الوالدين في زيادة العطف على صغار الاولاد وضعافهم وكانا أصغر أولاده ، فقد سئل والد بليغ : أي ولدك أحب اليك ؟ قال صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يشفى ، وفقيرهم حتى يغنى (واشك في هذه الاخيرة)

ومن فوائد القصة وجوب عناية الوالدين بمداراة الاولاد وتربيتهم على المحبة (٥) والعدل واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول اهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى ، وقد نهى عنه النبي ﷺ مطلقا ، ومنه سلوك سبيل الحكمة في تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية كمكارم الاخلاق والتقوى والعلم والذكاء . وما كان يعقوب بالذي يخفى عليه هذا ، وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم الا من علمه بما يجب فيه . ولكن ما يفعل (١٠) الانسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه ؟ كلا

دلائل العشق لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق

﴿ ٩ ـ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا ﴾ أي اقتلوه قتلا لا مطمع بعده ولا أمل في لقائه ، أو انبذوه كالشيء اللقا الذي لا قيمة له في أرض مجهولة بعيدة عن مساكننا أو عن العمران بحيث لا يهتدي إلى العودة الى أبيه سبيلا إن هو سلم (١٥) فيها من الهلاك ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ فيكن كل توجهه اليكم ، وكل اقباله عليكم ، بخلو الديار ممن يشغله عنكم أو يشاركم في عطفه وحبه ، وهذه الجملة من فوائد

(*) كان ليعقوب من الولد اثنا عشر ولدا ذكرا وهم (١) رأوبين بكر يعقوب (٢) وشمعون (٣) ولاوي (٤) ويهوذا (٥) ويساكر (٦) وزبولون وهؤلاء من ليئة بنت خاله لابان (٧) ويوسف (٨) وبنيامين من راحيل بنت خاله الأخرى وهما أصغر (٢٠) اولاده (٩) ودان (١٠) ونفتالي من بلهة جارية راحيل (١١) وجاد (١٢) واشير من زلفة جارية ليئة. وهؤلاء الاولاد ولدوا له وهو في فدان ارام يرعى غنم خاله لابان مهرا لابنتيه ليئة وراحيل واجرا لما زاده من خدمته في رعيها وعاد بهم بعد انقضاء الاجل وبما أخذ من غنم خاله إلى أرض كنعان إلا بنيامين فقد ولد في كنعان

درر الكلام البليغ بتصويرها حصر الحب وتوجه الاقبال والعطف بصورة الضروريات التي لا اختيار للرأي ولا للارادة فيها ، لا من ظاهر الحس ، ولا من وجدان النفس ، بعد وقوع هذه الجناية التي تقتضي إعراض الوجه ، وأعراض الكراهة والمقت ﴿ وتكونوا من بعده ﴾ أي من بعد يوسف أو بعد قتله وتغريبه

(٥) ﴿ قوما صالحين ﴾ تائبين الى الله من هذه الجريمة ، مصلحين لأعمالكم بما يكفر إثمها ، وعدم التصدي لمثلها ، فيرضى عنكم أبوكم ويرضى ربكم ، هكذا يزين الشيطان للمؤمن المتدين معصية الله تعالى ولا يزال ينزغ له ويسول ، ويعد ويمني ويأول ، حتى يرجح داعي الايمان ، أو يجيب داعي الشيطان ، وهذا الذي غلب على اخوة يوسف فكان ، ولكن بعد رأفة مخففة لحكم الانتقام ، وهو مقتضى

(١٠) الحكمة التي أرادها الله :

١٠ ﴿ قال قائل منهم ﴾ أبهمه القرآن لان تعيينه بتسميته لا فائدة منها في عبرة ولا حكمة ، وانما الفائدة في وصفه بأنه منهم ، وهي أنهم لم يجمعوا على جناية قتله ، وقال السدي انه يهوذا ، وفي سفر التكوين انه رأوبين ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ﴾ الجب البئر غير المطوية أي غير المبنية من داخلها بالحجارة وهو مذكر والبئر

(١٥) مؤنثة وتسمى المطوية منها طويّا ، وغيابته بالفتح ما يغيب عن رؤية البصر من قعره أو حفرة بجانبه تكون فوق سطح الماء يدخلها من يدلى فيه لاخراج شيء وقع فيه أو إصلاح خلل عرض له ، وعلم من التعريف انه جب معروف كان هنالك حيث يرعون ، وجواب ألقوه ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ وهم جماعة المسافرين الذين يسيرون في الارض يقطعون الارض من مكان إلى آخر لأجل التجارة فيأخذوه إلى حيث ساروا من الاقطار البعيدة

(٢٠) فيتم لكم الشق الثاني مما اقترحتم وهو إبعاده عن أبيه ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ ما هو الصواب المقصود لكم بالذات فهذا هو الصواب ، وجناية قتله غير مقصودة لذاتها ، فعلام اسخاط الله باقترافها والغرض يتم بما دونها ؟ وفي سفر التكوين ان رؤبين مكر بهم اذ كان يريد أن يخرجه من الجب ويرجعه الى أبيه ، وانهم وضعوه في البئر وكانت فارغة لا ماء

فيها ، فمرت بهم سيارة من تجار الاسماعيليين (العرب) مسافرة الى مصر فاقترح عليهم يهوذا اخراجه وبيعه لهم اذ لا فائدة لهم من قتله وهو من لحمهم ودمهم ففعلوا ، فهذا مادار بينهم وأجمعوه من أمرهم

(١١) قَالُوا يَاأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ
(١٢) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٣) قَالَ إِنِّي (٥)
لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ
(١٤) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ

هذا بيان مستأنف لما كادوا به أباهم بعد ائتمارهم بيوسف ليرسله معهم وهو الحق ، وفي سفر التكوين ان أباهم هو الذي أرسله اليهم بعد ذهابهم

١١ ﴿ قالوا ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف ﴾ يعنون أي شيء عرض لك (١٠)
من الشبهة في أمانتنا فجعلك لاتأمنا على يوسف ؟ وكانوا قد شعر وامنه بهذا بعد ما كان من رؤيا يوسف ويظهر انهم قد علموا بها ، كما انه شعر منهم بالتنكر له على حد قول الشاعر * كاد المريب بأن يقول خذوني * ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ أي والحال إنا لنخصه بالنصح الخالص من شائبة التفريط أو التقصير ، أكدوا هذه الدعوى بالجملة الاسمية المصدرة بان وتقديم « له » على خبرها واقترانه (١٥)
باللام . ولولا شعورهم بارتيابه فيهم لما احتاجوا الى كل هذا التأكيد

١٢ ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ﴾ أي أرسله معنا غداة غد اذ نخرج كعادتنا الى مراعينا في الصحراء يرتع معنا ويلعب . وقرىء في المتواتر أيضا نرتع ونلعب بنون الجماعة وهي مفهومة من قراءة الياء فان المراد من خروجه معهم مشاركته اياهم في رياضتهم وأنسهم وسرورهم بحرية الاكل واللعب والرتوع وهو (٢٠)

أكل ما يطيب لهم من الفاكهة والبقول وأصله رتع الماشية حيث تشاء . قال الزمخشري في الكشاف (نرتع) نتسع في أكل الفواكه وغيرها وأصل الرتعة الخصب والسعة اهـ وأما لعب أهل البادية فأكثره السباق والصراع والرمي بالعصي والسهام إن وجدت. وسيأتي ان لعبهم كان الاستباق بالعدو على الأرجل ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ ما دام معنا نقيه من كل سوء وأذى ، أكدوا هذا الوعد كسابقه مبالغة في الكيد

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) أرسله معنا غداً نرتع ونلعب . قال نسعى ونتنشط ونلهو . وعن ابن زيد [يرتعي بالياء وكسر العين قال يرعى غنمه وينظر ويعقل ويعرف ما يعرف الرجل] وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن هارون قال كان أبو عمرو يقرأ (نرتع ونلعب) بالنون فقلت لأبي عمرو كيف يقولون [نرتع ونلعب] وهم أنبياء ؟ قال لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقد توسع بعض المفسرين في هذه المسألة وعدوها مشكلة لظنهم ان اللعب غير جائز وقوعه من الانبياء . والتحقيق ان من اللعب ما هو نافع فهو مباح أو مستحب ، ومنه ملاعبة الرجل لزوجه وملاعبتها له كما ورد في الحديث الصحيح ، وأن اخوة يوسف لم يكونوا أنبياء يومئذ ولا بعده كما حققناه في محله ، وإن من التنطع والغفلة استشكال اللعب المباح في نفسه ممن شهد الله عليهم بالكيد لاخيهم والائتمار بقتله وتعمد إيذائه وفجيعة أبيهم به وكذبهم عليه وغير ذلك من كبائر المعاصي !!

١٣ ﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي قال أبوهم جوابا لهم : اني ليحزنني ذهابكم به بمجرد وقوعه ، والحزن ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه ، وفعله من باب قتل في لغة قريش وتعديه تميم بالهمزة واللام في قوله ليحزنني للابتداء

﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ والخوف ألم النفس مما يتوقع من مكروه قبل أن يقع ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ أي في حال غفلة منكم عنه واشتغال عن مراقبته وحفظه بلعبكم ، قيل لو لم يذكر خوفه هذا لهم لما خطر ببالهم أن يقع ، ولعله قاله من باب الاحتياط أو الاعتذار بالظواهر ، وإن كان يعلم حسن عاقبته في الباطن ، على

علمه هذا كان مجملا مبهما ومقيدا بالاقدار المجهولة كما أشرنا اليه من قبل

١٤ ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أي والله لئن اختطفه الذئب من بيننا وأكله والحال اننا جماعة شديدة القوى تعصب بنا الامور، وتكفي ببأسنا الخطوب ﴿إنا إذن لخاسرون﴾ وخائبون في اعتصابنا أو هالكون لايصح أن نعد من الاحياء الذين يعتد بهم ويركن اليهم، وهذه الجملة جواب للقسم أغنى عن جواب الشرط (٥)

أجابوه عما يخافه بما يرجون أن يطمأنه، وأما حزنه فلا جواب عنه لانه في حد ذاته لا بد منه وليس في استطاعتهم منعه، إذ هو لازم لفراقه له ولو فراقا قليلا فيه منفعة ليوسف في صحته بترويض جسمه في ضحى الشمس وهبوب الرياح وحركة الاعضاء في زمن قصير يعود بعده فيزول حزنه ويكون سروره مضاعفا لو صدقوا

(١٥) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ (١٠)
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
(١٦) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٧) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ
بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٨) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ،
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ (١٥)
عَلَى مَا تَصِفُونَ

هذه الآيات الاربع في بيان مانفذوا به عزمهم بالفعل، وما اعتذروا به لأبيهم من كذب، وما قابلهم من تكذيب وصبر، واستعانة بالله عز وجل: قال

١٥ ﴿فلما ذهبوا به﴾ في الغد من ليلتهم التي استنزلوا فيها أباه عن امساكه

عنده ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ أي أزمعوه وعزموا عليه عزما اجماعيا لا تردد فيه بعد ما كان من اختلافهم قبل في قتله أو تغريبه ، وجواب « لما » محذوف للعلم به مما قبله ومما بعده وتقديره نفذوه بأن ألقوه في غيابة ذلك الجب بالفعل ﴿ وأوحينا اليه ﴾ عند إلقائه فيه وحيا إلهاميا علم أنه منا مضمونه: وربك (٥) ﴿ لتنبأنهم بأمرهم هذا ﴾ معك إذ يظهرك الله عليهم ويذلهم لك ويجعل رؤياك حقا ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ يومئذ بما آتاك الله ، أو الآن بما يؤتيك في عاقبة هذه الفعلة التي فعلوها بك ، أو بهذا الوحي في الجب وهو المرتبة الاولى من مراتب التكليم الالهي للانبياء بعد التمهيد له بالرؤيا الصادقة . وقد هون الله تعالى على يوسف مصيبته به فعلم أنها مصيبة في الظاهر نعمة في الباطن ، وقد نقلوا عن السدي أن (١٠) إخوة يوسف طغوا في القسوة عليه والتنكيل به فقالوا وفعلوا مالا يصدر مثله إلا عن رعاع الناس وأراذل المجرمين الظالمين، وما هي إلا الاسرائيليات المنفرة من الاسلام والمسلمين

١٦ ﴿ وجاؤا أباهم عشاء يبكون ﴾ أي جاءوه في وقت العشاء إذ خالط سواد الليل بقية بياض النهار فمحاه حال كونهم يبكون ليقنعوه بما يبغون وقد بينه تعالى بقوله: (١٥) ١٧ ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أي ذهبنا من مكان اجتماعنا الى السباق يتكلف كل منا أن يسبق غيره ، فالاستباق تكلف السبق وهو الغرض من المسابقة والتسابق بصيغتي المشاركة التي يقصد بها الغلب، وقد يقصد لذاته أو لغرض آخر في السبق وسنه (فاستبقوا الخيرات) فهذا يقصد به السبق لذاته لا للغلب ، وقوله الآتي في هذه السورة (واستبقا الباب) كان يقصد به يوسف الخروج من (٢٠) الدار هربا من حيث تقصد امرأة العزيز بإتباعه إرجاعه، وصيغة المشاركة لا تؤدي هذا المعنى ، ولم يفطن الزمخشري علامة اللغة ومن تبعه لهذا الفرق الدقيق

﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ من فضل الثياب وما عون الطعام والشراب

﴿مثلا﴾ يحفظه إذ لا يستطيع مجاراتنا في استباقنا الذي يرهق به قوانا ﴿فأكله الذئب﴾ إذ أوغلنا في البعد عنه فلم نسمع صراخه واستغاثته ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ أي بمصدق لنا في قولنا هذا لاتهامك إيانا بكراهة يوسف وحسدناله على تفضيلك إياه علينا في الحب والعطف ﴿ولو كنا صادقين﴾ في الامر الواقع أو نفس الامر، أو ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا في هذا الخبر لشدة وجدك بيوسف (٥)

١٨ ﴿وجاؤا على قميصه بدم كذب﴾ المراد من هذه الجملة الفذة في بلاغتها أنهم جاؤا بقميصه ملطخا ظاهره بدم غير دم يوسف يدعون أنه دمه ليشهد لهم بصدقهم فكان دليلا على كذبهم، فذكر الدم ووصفه باسم الكذب مبالغة في ظهور كذبهم في دعوى أنه دمه حتى كأنه هو الكذب بعينه، فالعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة كما يقولون شاهد عدل، ومنه * فهن به جود وأنتم به بخل * (١٠) وقال «على قميصه» ليصور للقارىء والسامع أنه موضوع على ظاهره وضعا متكلفا ولو كان من أثر افتراس الذئب له لكان القميص ممزقا والدم متغلغلا في كل قطعة منه، ولهذا كله لم يصدقهم ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا﴾ هذا إضراب عن تكذيب صريح تقديره: إن الذئب لم يأكله بل سهلت لكم الامارة بالسوء أمرا إمرا، وكيدا نكرا، وزينته في قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه، أي هذا (١٥) أمركم وأما أمري معكم ومع ربي ﴿فصبر جميل﴾ أو فصبري صبر جميل لا يشوه جماله جزع اليائسين من روح الله، القانطين من رحمة الله، ولا الشكوى إلى غير الله ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ من هذه المصيبة لا أستعين على احتمالها غيره أحدا منكم ولا من غيركم

هذا هو الفصل الاول من قصة يوسف وهو صفوة الحق من أحسن القصص (٢٠) بما فيه من الدقة والعبرة، وقد شوهه رواة الاساطير والمفتريات الاسرائيلية بما ظنوا انه من أخبار التوراة وما هو منها ومن شاء فليقرأ هذا الفصل من قصة يوسف في سفر التكوين ليرى الفرق البعيد بين كلام الله وكلام البشر، وليعلم المغرور

بما نقله المفسرون من الاسرائيليات فيها كالسدي الكبير الذي هو أقل كذبا وأكثر إتقانا لاساطيره من السدي الصغير ، أن كل ما فيها من الزيادة لا أصل له عند أهل الكتاب ، ولا هو مروي عن نبينا ﷺ فهو كذب صراح (*)

(*) الفصل أو الاصحاح ٣٧ من سفر التكوين

(٥) وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان ٢ هذه مواليد يعقوب. إذ كان يوسف ابن سبع عشرة سنة وكان يرعى مع اخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه . وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة الى أبيهم ٣ وأما اسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصا ملونا ٤ فلما رأى إخوته ان أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا
(١٠) أن يكلموه بسلام ٥ وحلم يوسف حلما وأخبر إخوته فازدادوا أيضا بغضا له ٦ فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ٧ فهانحن حازمون حزما في الحقل واذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي ٨ فقال له إخوته ألعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا، وازدادوا أيضا بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه ٩ ثم حلم أيضا حلما آخر وقصه على اخوته ، فقال إني قد
(١٥) حلمت حلما أيضا واذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لي ١٠ وقصه على أبيه وعلى اخوته فانتهره أبوه وقال له ماهذا الحلم الذي حلمت؟ هل نأتي انا وأمك واخوتك لنسجد لك الى الأرض ١١ فحسده اخوته وأما ابوه فحفظ الأمر ١٢ ومضى اخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم (١) ١٣ فقال اسرائيل ليوسف أليس
اخوتك يرعون عند شكيم ؟ تعال فأرسلك اليهم ، فقال له ها أنذا ١٤ فقال له اذهب
(٢٠) انظر سلامة اخوتك وسلامة الغنم وورد لي خبراً ، فأرسله من وطاء حبرون (٢) فأتى الى شكيم ١٥ فوجده رجل واذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلا ماذا تطلب ١٦ فقال انا طالب اخوتي أخبرني أين يرعون؟ ١٧ فقال الرجل قد ارتحلوا من هنا لأني سمعتهم يقولون لنذهب الى دوثان، فذهب يوسف وراء اخوته فوجدهم في دوثان ١٨ فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب اليهم احتالوا له ليميتوه ١٩ فقال =

(١) شكيم هذه في محل نابلس اليوم (٢) هي مدينة الخليل والوطاء الوادي

(١٩) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى
هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَشَرَوْهُ
بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ

= بعضهم لبعض هو ذا هذا صاحب الأحلام قادم ٢٠ فالآن هلم نقتله ونطرحه
في إحدى الآبار ونقول وحش ردىء أكله فنرى ماذا تكون أحلامه ٢١ فسمع (٥)
رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال لا نقتله ٢٢ وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دما،
اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا اليه يداً، لكي ينقذه من أيديهم
ليرده الى أبيه ٢٣ فكان لما جاء يوسف الى إخوته انهم خلعوا عن يوسف قميصه
القميص الملون الذي عليه ٢٤ وأخذوه وطرحوه في البئر، وأما البئر فكانت فارغة
ليس فيها ماء ٢٥ ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا واذا قافلة (١٠)
اسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء و بلسانا ولاذنا ذاهبين ليتزلوا
بها الى مصر ٢٦ فقال يهوذا لاخوته ما الفائدة ان نقتل أخانا ونخفي دمه ٢٧
تعالوا فنبيعه للاسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه اخونا ولحمنا فسمع له اخوته
٢٨ واجتاز رجال مديانيون تجار، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر و باعوا
يوسف للاسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف الى مصر ٢٩ ورجع رأوبين (١٥)
الى البئر واذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ٣٠ ثم رجع الى اخوته وقال الولد
ليس موجوداً وانا الى أين أذهب ٣١ فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من
المعزى وغمسوا القميص في الدم ٣٢ وأرسلوا القميص الملون وأحضروه الى أبيهم
وقالوا وجدنا هذا حقق أقميص ابنك هو أم لا ؟ ٣٣ فتحققه وقال قميص ابني
وحش ردىء أكله، افترس يوسف افتراسا ٣٤ فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا (٢٠)
على حقويه وناح على ابنه أياما كثيرة ٣٥ فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى
أن يتعزى وقال اني أنزل الى ابني نائحا الى الهاوية وبكى عليه أبوه ٣٦ وأما
المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط

هاتان الآيتان في استعباد قافلة من التجار ليوسف (ع . م) والاتجار به

١٩ ﴿ وجاءت ﴾ ذلك المكان الذي كانوا فيه ﴿ سيارة ﴾ صيغة مبالغة من السير (كجوالة وكشافة) أي جماعة أو قافلة وفي سفر التكوين أنهم كانوا من الاسماعيليين أي من العرب ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ المختص بورود الماء للاستقاء لهم ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أي أرسله ودلاه في ذلك الجب فتعلق به يوسف فلما خرج ورآه ﴿ قال يابشرى هذا غلام ﴾ يبشر به جماعته السيارة . قرأها الجمهور يابشراي بالاضافة إلى ياء المتكلم والسكوفيون بدونها وأمال ألفها حمزة والكسائي . ونداء البشرى معناه أن هذا وقتها وموجبها فقد آن لها أن تحضر ، ومثله قولهم : ياأسفا ويأسفي ، وياحسرتا وياحسرتي . إذا وقع ما هو سبب لذلك . فاستبشر به السيارة ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ أي أخفوه من الناس لئلا يدعيه أحد من أهل ذلك المكان لأجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجارتهم ، والبضاعة ما يقطع من المال ويفرز للاتجار به ، مشتق من البضع وهو الشق والقطع ومنه البضعة والبضع من العدد وهي من ثلاث الى تسع والبضعة من اللحم وهي القطعة . وما قيل من أن الذين أسروه هم الوارد الذي استخرجه ومن كان معه دون سائر السيارة أو ان الضمير في أسروه لاخوة يوسف فهو خلاف الظاهر ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ أي بما يعمله هؤلاء السيارة وما يعمله إخوة يوسف فلكل منهم ارب في يوسف: السيارة يدعون بالباطل أنه عبد لهم فيتجرون به ، وإخوة يوسف أمرهم مع أبيهم في اخفائه وتغريبه ودعوى أكل الذئب إياه معلوم وانه كيد باطل . وحكمة الله تعالى فيه فوق كل ذلك

٢٠ ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ شرى الشيء يشريه باعه واشتراه ابتاعه ، أي باعوه بثمن قليل ناقص عن ثمن مثله على انه ليس له مثل ، هو دراهم لادنانير ، معدودة لاموزونة ، وإنما يعد القليل ويوزن الكثير ، وكانت العرب تزن ما بلغ الأوقية وهي أربعون درهما فما فوقها وتعد ما دونها ، ولهذا

يعبرون عن القليلة بالمعدودة ، والبخس في اللغة الناقص والعيب (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وروي تفسيره هنا بالحرام وبالظلم لانه بيع حر فيكون وصفه بدراهم معدودة مستقلا لا تفسيراً لبخس وظاهر النظم ان الذين شروه هم السيارة.

وفي سفر التكوين أن إخوته قرروا بيعه الاسماعيليين ، وقد أخرجه من الجب جماعة من مدين وباعوه لهم وقد بعد ذكرهم ، ويحتمل أن يكون لفظ شروه قد (٥) استعمل بمعنى اشتروه وهو مسموع ، ويكون المراد انهم اشتروه من اخوته بثمن بخس ثم باعوه في مصر بثمن بخس أيضا ، وهو ادماج من دقائق الايجاز ، وأما الثمن البخس الذي بيع به ففي سفر التكوين أنه كان عشرين (شاقلا) من الفضة وقدر علماء التاريخ القديم الشاقل بخمسة عشر غراما من الوزن العشري اللاتيني المعروف في عصرنا فيكون ثمنه ٣٠٠ غرام من الفضة ، وهي تقرب من ٩٤ درهما من (١٠) دراهمنا اليوم ، وعن ابن مسعود (رض) أنه عشرون درهما ولعله سمعه عن اليهود

فظن أن العشرين عندهم هي الدراهم عند العرب ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ أي وكان هؤلاء الذين باعوه من الراغبين عنه الذين يبغون الخلاص منه لئلا يظهر من يطالبهم به لانه حر ، والثمن لم يكن مقصودا لهم ولهذا قنعوا بالبخس منه

حادثة يوسف مع امرأة العزيز (١٥)

(٢١) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٢) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا (٢٠)

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(هاتان الآيتان تمهيد للقصة في وجهة نظر مشتريه فيه وتمكين الله له وتعليمه وغلبه على أمره وإيتاؤه حكما وعلما وشهادته باحسانه)

٢١ ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ﴾ لم يبين القرآن اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر ولا منصبه ولا اسم امرأته لأن القرآن
(٥) ليس كتاب حوادث وتاريخ ، وإنما قصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب ، ولكن وصفه النسوة فيما يأتي بلقب العزيز وهو اللقب الذي صار لقب يوسف بعد أن تولى ادارة الملك في مصر فالظاهر أنه لقب أكبر وزراء الملك ، وللمفسرين أقوال في اسمه واسمها واسم ملك مصر ليس للقرآن شأن فيها . وفي سفر التكوين انه كان رئيس الشرط وحامية الملك وناظر السجون ، وان اسمه فوطيفار ، ووصف فيه بالخصي ولكن
(١٠) الخصيان لا يكون لهم أزواج فقيل في تصحيحه لعله لقب لا يقصد به هذا المعنى . وقد تفرس هذا الوزير الكبير في يوسف أصدق الفراسة اذا وصى امرأته باكرام مثواه ، والمثوى مصدر واسم مكان من ثوى بالمكان يثوي (كرمى يرمي) ثواء أي أقام ، فتضمنت هذه الوصية اكرامه وحسن معاملته في كل ما يختص باقامته بحيث يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم ، وعلل ذلك بما يدل على أمله ورجائه فيه وهو
(١٥) ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ بالقيام ببعض شئوننا الخاصة أو شئون الدولة العامة لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنباهة ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ فيكون قرة عين لنا ، ووارثا لمجدنا ومالنا ، اذا تم رشده وصدقت فراستي في نجابته ، وفهم من هذا الرجاء أن العزيز لم يكن له ولد وما كان يرجو ان يكون له ، وروي أنه كان عقيما . وكان رجاؤه هذا كرجاء امرأة فرعون موسى فيه من بعده ، وكانت صالحة ملهمة ، وأما
(٢٠) العزيز فكان ذكياً صادق الفراسة فاستدل من كمال خلق يوسف وخلقه ، وذكائه وحسن خلاله ، على ان حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته ، خير متمم لحسن استعداده الفطري ، إذ لا يفسد أخلاق الاذكياء الا البيئة الفاسدة وسوء

القدوة ، وما كان الا صادق الفراسة ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ أي وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير جعلنا ليوسف مكانة عالية في أرض مصر كان هذا العطف عليه والرجاء فيه من هذا العزيز مبدأها ليقع له في بيته ثم في السجن ما يقع من التجارب والاتصال بساقي الملك فيكون وسيلة للوصول اليه ﴿ ولنعلمه من تأويل الاحاديث ﴾ كتعبير الرؤيا ومعرفة حقائق الامور ما ينتهي (٥) به إلى الغاية من هذا التمكين ، وقوله للملك (اجعلني على خزائن الارض إني حفيظ عليم) وقول الملك له (إنك اليوم لدينا مكين أمين) ﴿ والله غالب على أمره ﴾ أي على كل أمر يريده ويقدره فلا يغلب على شيء منه بل يقع كما أراد ، فكل ما وقع ليوسف من اخوته ومن مسترقيه وبائعيه ومن توصية الذي اشتراه لامرأته باكرام مثواه ومما وقع له مع هذه المرأة وفي السجن قد كان من أسباب ما أراده تعالى (١٠) له من تمكينه في الارض ، وان كان ظاهره على خلاف ذلك ، ويجوز أن يكون المعنى أن الله غالب على أمر يوسف فهو يدبره ويلهمه الخير ولا يكله الى تدبير نفسه واتباع هواه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ انه تعالى غالب على أمره بل يأخذون بظواهر الامور ، كما استدل اخوة يوسف بابعاده على أن يخلو لهم وجه أبيهم ويكونوا من بعده قوما صالحين . ويقابل الاكثر في هذا المقام يعقوب عليه السلام ، (١٥) فقد كان يعلم ان الله غالب على أمره ، وأقواله صريحة في الدلالة على علمه ما تقدم منها وما تأخر في هذه القصة ، ولكن علمه كلي إجمالي لا يحيط بتفصيل الجزئيات المحجوبة في مطاوي الاقدار كما قلنا من قبل

بدئت هذه القصة ببيان إيتاء الله الحكم والعلم ليوسف عند استكمال سن الشباب وبلوغ الاشد ، وان هذا العطاء جزاء منه سبحانه له على إحسانه في سيرته (٢٠) منذ سن التمييز لم يكن مسيئا في شيء قط ، وختمت بشهادته تعالى بما كان من امتناع العزيز ببراءته من الخطيئة والتياث امرأته بها وحدها قال عز وجل :

٢٢ ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ أي رشده وكمال قوته وشدته باستكمال نموه البدني والعقلي ﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾ أي وهبناه حكما إلهاميا وعقليا بما يعرض له أو عليه

من النوازل والمشكلات مقرونا بالحق والصواب، وعلما لدنيا وفكريا بحقائق ما يعنيه من الامور ، وهذه السن في عرف الاطباء تتم في خمس وعشرين سنة، ولأهل اللغة ورواة التفسير فيها أقوال فعن عكرمة أنها ٢٥ سنة وعن ابن عباس انها ثلاث وثلاثون سنة ولعله أخذه من قوله تعالى في كمال البنية الانسانية (حتى اذا بلغ أشده
(٥) وبلغ أربعين سنة) فجعلها درجتين بلوغ الاشد وبلوغ الاربعين وهي سن الاستواء كما قال في موسى (٢٨ : ١٤ فلما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) فالاول مبدأ استكمال النمو العضلي والعصبي والثاني مستواه ، وبه يتم الاستعداد للنبوة ووحي الرسالة وقد ثبت عن علماء النفس والاجتماع ان الانسان يظهر استعداده العقلي والعلمي بالتدريج حتى اذا بلغ خمساً وثلاثين
(١٠) سنة لا يظهر فيه شيء جديد من العلم الكسبي غير ما ظهر من بدء سن التمييز الى هذه السن ، وإنما يكمل ما كان ظهر منه اذا هو ظل مزاولا له ومشتغلا بتكميله ، وقد بينا ذلك في تفسير قوله تعالى (١٠ : ١٦ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) وفصلناه في كتاب الوحي المحمدي وقد ظهر حكم يوسف وعلمه

بعد بلوغ أشده في مصر كما يأتي تفصيله في مواضعه ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾
(١٥) أي وكذلك شأننا وسنتنا في جزاء المتحلين بصفة الاحسان، الثابتين عليه بالاعمال، الذين لم يدنسوا فطرتهم ولم يدسوا أنفسهم بالاساءة في أعمالهم ، نؤتيهم نصيبا من الحكم بالحق والعدل ، والعلم الذي يزينه ويظهره القول الفصل ، فيكون لكل محسن حظ من الحكم الصحيح والعلم النافع بقدر إحسانه ، وربما يكون له من حسن التأثير في صفاء عقله ، وجودة فهمه وفقهه ، غير ما يستفيده بالكسب من
(٢٠) غيره ، لا يؤتى مثله المسيئون باتباع أهوائهم وطاعة شهواتهم ، وقال ابن جرير الطبري : وهذا وان كان مخرج ظاهره على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ يقول لعز وجل كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما لقي من اخوته ما لقي ... فكذلك أفعل بك وأنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وامكن لك في الارض الخ وأقول لا شك أن هذه السنة في جزاء المحسنين عامة ولكل محسن منها بقدر إحسانه ، وإذن يكون حظ محمد ﷺ أعظم من حظ يوسف وغيره من الانبياء عليهم السلام

(٢٣) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٤) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٥) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى (٥) الْبَابِ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

(مسألة المراودة والهم والمطاردة)

٢٣ ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة وصية العزيز لامرأته باكرام مثواه وما علله به من حسن الرجاء فيه، وما (١٠) بينه الله تعالى من عنايته به وتمهيد سبيل الكمال له بتمكينه في الأرض، يقول ان هذه المرأة التي هو في بيتها نظرت اليه بغير العين التي نظر اليه بها زوجها، وأرادت منه غير ما أراده هو وما أراده الله من فوقهما، هو أراد ان يكون قهرمانا أو ولدا لها، والله أراد أن يمكن له في الارض ويجعله سيد البلاد كلها، وهي أرادت ان يكون عشيقا لها: وراودته عن نفسه أي خادعته عنها وراوغته (١٥) لأجل ان يرود أو يريد منها ما تريد هي منه مخالفا لارادته هو وإرادة ربه والله غالب على أمره، قال في المصباح المنير: أراد الرجل كذا ارادة وهو الطلب والاختيار، وراودته على الامر مراودة وروادا من باب قاتل طلبت منه فعله وكأن في المراودة معنى المخادعة لان المراود يتلطف في طلبه تلطف المخادع ويحرص حرصه. وقال الراغب:

المراودة أن تنازع غيرك في الارادة فتريد غير ما يريد ، أو تروود غير ما يروود ، وذكر شواهد الآيات في هذه القصة ومنها قول إخوة يوسف له (ستراود عنه أباه) أي نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ليرسل أخاه معنا . وقال في أساس البلاغة : وراوده عن نفسه خادعه عنها وراوغه ، وقال في الكشاف المراودة مفاعلة من راد يرود (٥) اذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته عن نفسه أي فعلت ما يفعل المخادع عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التحيل لمواقعته إياها اه ولو رأت منه أدنى ميل اليها وهي تخلو به في مخادع بيتها لما احتاجت إلى مخادعته بالمراودة ، ولما خابت في التعريض له بالمغازلة والمهازلة ، تنزلت إلى المكاشفة والمصارحة ، إذ كان كل ما سبقه منها وحدها لم يشاركها فيه ،

(١٠) ﴿وغلقت الابواب﴾ أي أحكمت اغلاق باب المخدع الذي كانا فيه وباب البهو الذي يكون أمام الحجرات والغرف في بيوت الكبراء وباب الدار الخارجي ، وقد يكون في أمثال هذه القصور أبواب أخرى متداخلة ﴿وقالت هيت لك﴾ أي هلم أقبل وبادر ، وزيادة «لك» بيان للمخاطب كما يقولون هلم لك وسقيا لك . واقتصر على هذا في التنزيل ، وهو منتهى النزاهة في التعبير ، والله أعلم بما زادته من الاغراء والتهييج الذي تقتضيه

(١٥) الحال ، ونقل رواة الاسرائيليات عنها وكذا عنه من الوقاحة ما يعلم بالضرورة أنه كذب فان مثله لا يعلم الا من الله تعالى أو بالرواية الصحيحة عنها أو عنه ولا يستطيع أن يدعي هذا أحد كما يأتي قريبا . وهيت اسم فعل قري ء بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبضمها كحيث ، وروي انها لغة عرب حوران ، وكان سبب اختيارها انها أخصر ما يؤدي المراد بأكمل النزاهة اللائقة بالذكر الحكيم ، وهو ما لم يعقله أولئك الرواة لما

(٢٠) يخالفه ويناقضه ﴿قال معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله معاذاً وأتحصن به فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين الفاسقين ، كما قال بعد ان استعانت عليه بكيد صواحبها من النسوة (وإلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين)

وجملة قال معاذ الله الخ بيان مستأنف لجواب يوسف مبني على سؤال تقديره : وماذا قال بعد تسفل المرأة وهي سيدته إلى هذه الدركة من التذلل له ؟ وهو كما قالت

مريم ابنة عمران للملك الذي تمثل لها بشراً سويا (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) وعلل هذه الاستعاذة بقوله ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أي إنه تعالى ولي أمري كله أحسن مقامي عندكم وسخركم لي بما وفقني له من الامانة والصيانة فهو يعيذني ويعصمني من عصيانه وخيانتكم ، ويحتمل أنه أراد بربه مالكه العزيز في الصورة وان كان حرا مظلوما في الحقيقة . كما يقال رب الدار ، وكان من عرفهم (٥) اطلاقه على الملوك والعظماء كما يأتي في قوله عليه السلام لساقي الملك في السجن (إذكرني عند ربك) ولكن الله عاقبه انه لم يذكر حينئذ ربه ، فكان نسيانه له سببا لطول مكثه في السجن كما يأتي ، ثم إنه قال لرسول الملك . اذ جاءه يطلبه لأجله (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) وعلى هذا القول وقد جرى عليه الجمهور يكون الضمير في « انه » ما يسمونه (١٠) ضمير الشأن والقصة أي إن الشأن الذي أنافيه هو ان سيدي المالك لرقبتي قد أحسن معاملتي في اقامتي عندكم وأوصاك باكرام مثواي فلن أجزيه على إحسانه بشر الاساءة وهو خيانته في أهله، وهذا التفسير تعليل لرد مراودتها بعد الاستعاذة بالله منها، لا تعليل الاستعاذة نفسها كالأول، والفرق بينهما دقيق لما بينهما من العموم في الاول والخصوص في الثاني . ثم علل امتناعه بما هو خاص بنزاهة نفسه فقال (١٥) ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ لانفسهم وللناس كالخيانة لهم والتعدي على أعراضهم وشرفهم، لا يفلحون في الدنيا ببلوغ مقام الامامة الصالحة والرياسة العادلة ، ولا في الآخرة بجوار الله ونعيمه ورضوانه . . وفي جملة الجواب من الاعتصام والاعتزاز بالايمان بالله والامانة للسيد صاحب الدار والتعريض بخيانة امرأته له المتضمن لاحتقارها ما أضرم في صدرها نار الغيظ والانتقام، مضاعفة لنار الغرام، (٢٠) وهو ما بينه تعالى بقوله مؤكداً بالقسم لانه مما ينكره الاخيار من شرور الفجار :

٢٤ ﴿ ولقد همت به ﴾ أي وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها، وهي في نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه ، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة ،

ومراودة عن نفسها لامراودة ، حتى ان حماة الانوف من كبراء الرجال ، ليطئطئون الرءوس لفقيرات الحسان ربات الجمال ، ويبذلون لهن مايعتزون به من الجاه والمال ، بل إن الملوك ليذلون أنفسهم لمملوكاتهم وازواجهم ولا يأبون ان يسموا أنفسهم عبيداً لهن ، كما روي عن بعض ملوك الاندلس :

(٥) نحن قوم تذيبنا الاعين النجـ ـل على أننا نذيب الحديدا
فترانا لدى الكريهة أحرا راً وفي السلم للملاح عبيداً

ولكن هذا العبد العبراني الخارق للطبيعة البشرية في حسنه وجماله ، وفي جلاله وكماله ، وفي إبائه وتأله ، قد عكس القضية ، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين ، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها في إدلالها وتمنعها ، وهبط بالسيدة المالكة (١٠) من عزة سيادتها وسلطانها ، ودهور الاميرة (الارستقراطية) من عرش عظمتها وتكبرها ، وأذلها لعبدها وخادمها ، بما هو نه عليها : قرب الوساد ، وطول السواد (١) والخلوة من وراء الاستار والابواب ، حتى انها لتراوده عن نفسه في مخدع دارها ، فيصد عنها علواً ونفاراً ، ثم تصارحه بالدعوة إلى نفسها فيزداد عتواً واستكباراً ، معتزاً عليها بالديانة والامانة ، والترفع عن الخيانة ، وحفظ شرف سيده وهو سيدها (١٥) وزوجها وحقه عليها أعظم ، ان هذا الاحتقار لايطاق ، ولا علاج لهذا الفاتن المتمرد إلا تذليله بالانتقام ، هذا ماثار في نفس هذه المرأة المفتونة بطبيعة الحال (كما يقال) وشرعت في تنفيذه أو كادت ، بأن همت بالبطش به في ثورة غضبها ، وهو انتقام معهود من مثلها وممن دونها في كل زمان ومكان ، وأكثر ما ترويه لنا منه قضايا المحاكم وصحف الاخبار ، وكاد يرد صيالها ويدفعه بمثله وهو قوله تعالى

(٢٠) ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه ، ماهو مصداق قوله تعالى (والله غالب على أمره) وهو إما النبوة التي تملي الحكم

١) السواد بالفتح شخص الانسان وبالكسر مصدر ساوده اذا ساره فقرب سواده من سواده أي شخصه من شخصه - والكلمة لابنة الخص اعتذرت بها عن نفسها بعد ان فتنت فقيل لها : لم ... وأنت سيدة قومك ؟ فقالتها فارسلتها مثلا يجب أن يعتبر به الذين يتساهلون في السماح لنسائهم بالخلوة بالرجال من الخدم فضلا عن غيرهم

والعلم اللذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الاشد ، وشاهده قوله تعالى (قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا) وإما معجزتها كما قال تعالى لموسى في آيتي العصا واليد (فذانك برهانان من ربك) وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا وهي مراقبته لله تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا اليه ، وفاقا لما قاله أخوه محمد خاتم النبيين في تفسير الاحسان « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه (٥) فانه يراك » فيوسف قد رأى هذا البرهان في نفسه ، لا صورة أبيه متمثلة في سقف الدار ، ولا صورة سيده العزيز في الجدار ، ولا صورة ملك يعظه بآيات من القرآن ، وأمثال هذه الصور التي رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير المأثور بما لا يدل عليه دليل من اللغة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع ، ولم يرو في خبر مرفوع إلى النبي ﷺ في الصحاح ولا فيما دونها ، وما قلناه هو المتبادر من اللغة ووقائع القصة ، (١٠) ومقتضى ما وصف الله به يوسف في هذا السياق وغيره من السورة ولا سيما قوله في أوله (وكذلك نجزي المحسنين) وما فسر النبي ﷺ به الاحسان ، وقوله في تعليله

﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ أي كذلك فعلنا وتصرفنا في أمره لنصرف عنه دواعي ما أرادته به أخيراً من السوء وما راودته عليه قبله من الفحشاء ، بحصانة أو عصمة منا تحول دون تأثير دواعيها الطبيعية في نفسه ، فلا (١٥) يصيبه شيء يخرجه من جماعة المحسنين الذين شهدنا له بأنه منهم ، إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو في رده عليها بأنهم لا يفلحون وشهادته حق

﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ بفتح اللام وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب وقال فيهم (٣٨ : ٤٥ واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولي الايدي والابصار ٤٦ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ٤٧ وانهم عندنا لمن (٢٠) المصطفين الاخيار) وقد قلنا في أول القصة ، إن يوسف هو الحلقة الرابعة في سلسلتهم الذهبية ، وان أباه بشره بذلك بعد أن قص عليه رؤياه إذ قال له (وكذلك يجتبيك ربك) فالاجتباء هو الاصطفاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (المخلصين) بكسر اللام . والقراءتان متفقتان متلازمتان فهم مخلصون لله في إيمانهم به وحبهم وعبادتهم له ، ومخلصون عنده بالولاية والنبوة والعناية

والوقاية من كل ما يبعدهم عنه ويسخطه عليهم، والجملة تعليل لصرف الله السوء والفحشاء عنه، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء فانه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه اليهما فيصرف عنهما، وهمه لأول وهلة بدفع صياحها هم بأمر مشروع وجد مقتضيه مقترنا بالمانع منه وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه، فكان الفرق
(٥) بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها من خيبتها واهانته لها فلما رأى أمارة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهم به، فكان موقفهما موقف المواثبة، والاستعداد للمضاربة، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته مالم تر هي مثله، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذي تتم به حكمته سبحانه وتعالى فيما أعده له، فلجأ إلى الفرار ترجيحا للمانع على المقتضي، وتبعته هي مرجحة المقتضي
(١٠) على المانع حتى صار جزما، واستبقا باب الدار، وكان من امرهما مايأتي بيانه في الآية التالية، ونقدم عليه رأي الجمهور في الهم من الجانبين

﴿رأي الجمهور في همت به وهم بها وبيان بطلانه﴾

ذهب الجمهور المحدوعون بالروايات الى أن المعنى انها همت بفعل الفاحشة ولم يكن لها معارض ولامانع منها، وهم هو بمثل ذلك ولولا أنه رأى برهان ربه لاقترفها، ولم
(١٥) يستح بعضهم ان يروى من أخبار اهتياجه وتهوكه فيه ووصف انهماكه وإسرافه في تنفيذه، وتهتك المرأة في تبذلها بين يديه، ما لايقع مثله الا من أوقح الفساق المسرفين المستهترين، الذين طال عليهم عهد استباحة الفواحش وألفتها حتى خلعوا العذار، وتجردوا من جلابيب الحياء، وأمسوا عراة من لباس التقوى وحلل الآداب، كأهل مدنية هذا العصر من الرجال والنساء في مواخير البغاء السرية، ومايقرب منه
(٢٠) في حمامات البحر الجهرية، حتى كادوا يعيدون للعالم فجور مدينة (بومباي) الرومانية، التي خسف الله بها وأمطر عليها من براكين النار مثلما أمطر على قرية قوم لوط من قبلها، فان مثل هذا الذي افتروه في قصة هذا النبي الكريم لا يقع مثله ممن ابتلي بالمعصية أول مرة من سليمي الفطرة، ولا من سذج الاعراب الذين لم تغلبهم سورة الشهوة الجامحة على حيائهم الفطري وإيمانهم وحيائهم من نظر ربهم اليهم،

فضلا عن نبي عصمه الله ووصفه بما وصف وشهد له بما شهد، وقد بلغ ببعضهم (كالسدي) الجهل بالدين والوقاحة وقلة الادب ان يزعموا ان يوسف عليه السلام لم ير برهانا واحدا بل رأى عدة براهين من رؤية والده متمثلا له منكرا عليه، وتكرار وعظه له، ومن رؤية بعض الملائكة ونزولهم عليه باشد زواجر القرآن بآيات من سوره، فلم تنهنه من شبقه، ولم تنهه عن غيه، حتى كان أن خرجت شهوته من أظافره، ومعنى هذا أنه لم يكف إلا عجزاً عن الامضاء، أفبهذا صرف الله عنه السوء والفحشاء، وكان من عباد الله المخلصين، وأنبيائه المصطفين المجتبين الاخيار؟ (٥)

ولئن كان عقلاء المفسرين أنكروا هذه الروايات الاسرائيلية الحمقاء، حماية لعقيدة عصمة الانبياء، فانه لم يكد يسلم أحد من تأثير بعضها في أنفسهم، وتسليمهم لهم ان الهم من الجانبين كان بمعنى العزم على الفاحشة، إلا من خالف قواعد اللغة فقال (١٠) ان قوله تعالى (وهمّ بها) جواب لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) ومن قال إن جوابه محذوف دل عليه ماقبله، فهو على هذين القولين لم يهم بشيء، وهو خلاف المتبادر من العبارة أو ظاهرها، وتأوله بعضهم بأن همه بالفاحشة بمقتضى الداعية الفطرية لاينافي العصمة وانما ينافيها طاعتها بدليل ما صح في الحديث ان من هم بسيئة ولم يفعلها لم تكتب عليه، وان امتناعه عنها بترجيح داعية الايمان وطاعة (١٥) الله تعالى مع طغيانها وإلحاحها الطبيعي عليه أدل على الايمان والطاعة من كونه لم يفعلها كراهة لها وعزوفا عنها لقبحها، ولهم تأويلات من هذا ولقد كانوا لولا تأثير الرواية في غنى عنها،

والتأويل الاخير أوله مقبول وآخره مردود، فهنا مرتبتان إحداهما الكف عن المعصية جهاداً للنفس وكبحا لها خوفا من الله تعالى، وهي مرتبة الصالحين الابرار، ومرتبة (٢٠) الكراهة لها والاشمئزاز منها حياء من الله ومراقبة له واستغراقا في شهوده، وهي مرتبة الصديقين والنبيين الاخيار، الذين اذا عرضت لهم الشهوة المستلذة بالطبع، بالصورة المحرمة في الشرع، عارضها من وجدان الايمان، وتجلي الرحمن، ما تغلب به روحانيتهم الملكية، على طبيعتهم الحيوانية، وهذا مما قد يحصل لمن دون الانبياء منهم، فكيف بمن يرون برهان ربهم بأعين قلوبهم، وينعكس نوره عن

بصائرهم فيلوح لأبصارهم ، كما أشرنا اليه في تفسيره آنفا ؟

ولهذه المرتبة درجات منها فقد الشهوة الطبيعية في هذه الحال، أوفقد الشعور بالقدرة على وضعها في الموضع المحرم مع وجودها على أشدها ، ولا عجب فقوى النفس وانفعالاتها الوجدانية تتنازع فيغلب أقواها أضعفها . حتى ان من الاباحيين

(٥) والاباحيات من أهل الحرية الطبيعية من يملك في مثل تلك الخلوة منع نفسه أن يبيحها لمن يراوده عنها، لاخوفا من الله ولاحياء منه لانه غير مؤمن به أو بعقابه، بل وفاء لزوج أو عشيق عاهده على الاختصاص به فصدقه

حدثنا مصور سوري كان زير نساء فاسق أنه كان في بعض الولايات المتحدة الامريكانية فأعلن في بعض الجرائد أنه يطلب امرأة جميلة لاجل أن يصورها كما

(١٠) يشاء بجعل معين من المال وهذا معهود عند الافرنج، فجاءه عدة من الحسان اختار إحداهن وخلا بها في حجرته الخاصة وأوصد بابها ، وأمرها بالتجرد من جميع ثيابها، فتجردت فطفق يصورها على أوضاع مختلفة من انتصاب وانحناء ، وميل والتواء، وإقبال وإدبار ، وهو لا يفكر في غير إتقان صناعته ، فعرض لها دوار في رأسها ، فجلست على أريكة للاستراحة فجلس بجانبها، وأنشأ يلاعبها ويداعبها وهي ساكنة

(١٥) ساكتة ، فتنبه في نفسه من الشعور ما كان غافلا أو نائما ، فراودها عن نفسها ، فتمنعت بل امتنعت ، فعرض عليها المال فأعرضت ، فقال لها أنت حرة في نفسك ولكني أرجو منك أن تجيبيني عن سؤال علمي هو ما بيان سبب هذا الامتناع ؟ قالت سببه أنني عاهدت رجلا يحبني وأحبه على أن يكون كل منا للآخر لا يشرك في الاستمتاع به أحداً ، ولا يبتغي به بدلا ، فقال لها اني أهنئك وأحترم وفاءك

(٢٠) هذا ، ثم أتم صناعته ونقدها الجعل المعين فأخذته وانصرفت

والراجح عندي ان هذه المرأة لم تشته مواتاة هذا الرجل فتجاهد نفسها على الامتناع ، وان المانع من اشتهائه توطين نفسها على الوفاء لعشيقها الاول حتى لم تعد تتوجه الى الاستمتاع بغيره ، وتوجيه النفس الى الشيء أو عنه هو صاحب السلطان الأعلى على الارادة ، وتربية الارادة هي أصل التخلق بالفضائل والتخلي عن الرذائل باتفاق الحكماء والصوفية ، ويسمي هؤلاء سالك طريق الحق مريدا ،

والواصل إلى غايته مرادا ، أي مجتبى مختارا، وهولا يكون على كماله الا لاصحاب الايمان اليقيني الوجداني ، ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف ، كما قال استاذنا في رسالة التوحيد ، ولقد عجبنا أن أنكر علينا بعض المحرومين عن هـذا ممن نعدهم بحق من الصالحين قولنا في المقصورة الرشيدية فيمن امتنع من رقية صدر فتاة حسناء: أنت فتى خاف مقام ربه مازال ينهى نفسه عن اهوى (٥)

لم يقترف فاحشة قط ولم يعزم ولا همَّ بها ولا نوى
بغرة منها وصفو نية في معزل تشبيه اقصى ما اشتهى
مما يمنيه به شيطانه من حيث لا يطمع منه في خنا
لكنه استعصم راويا لها ما امر الله به وما نهى

إذ ظن المنكر فيه انه فضل نفسه على يوسف عليه السلام ، وأين هذا من ذاك (*) (١٠)

وجملة القول ان أعظم مزايا البشر في قوة الارادة فلولاها لكان الانسان كالحيوان الاعجم عبد الطبيعة ، ولذلك كانت المراودة احتيالا لتحويل الارادة وجعلها خاضعة للمراود ، وإنما يظفر فيها من كانت إرادته أقوى ، وفوق ذلك عناية الله تعالى (فتأمل وتدبر)

فاذا كان في أهل الاباحة والحرية المطلقة من تملك إرادتها ولا تلين لمراودها، (١٥) ولا يغريها المال وهو المعبود الاكبر لامثالها في بلادها فيحملها على نقض عهدها في مثل تلك الخلوة وذلك التجرد بين يدي مصورها ، ولقد كان من أجمل الشباب، وأبرعهن في تصبي النساء ، أفيكثر أو يستغرب في رأي أولئك الرواة أن يكون يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم في وراثته الفطرية والادبية ومقام النبوة عن آبائه الاكرمين، وما اختصه به ربه وكونه هو الغالب على أمره من تربيته وعنايته، (٢٠) وما شهد له به من العرفان والاحسان والاصطفاء ، وما صرف عنه من دواعي السوء والفحشاء، وما قص علينا من شهادة تلك المرأة له على نفسها بقولها (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أي استمسك بعروة العصمة الوثقى التي لا انفصام لها ، ثم ما شهد له به صواحبها من المراودات من قولهم (حاش لله ما علمنا عليه

(*) راجع هذه المسألة في ص ٥٤٥ من جزء التفسير التاسع وما قبلها وما بعدها

من سوء) أي ادنى شيء سيء، ثم ما ايدت به شهادتهن من قولها (الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) أيكثر عليه أو يستغرب منه أن يكون أملك لنفسه من تلك المرأة الاباحية ، أو بمنجاة من الهم الذي زعموه ، وصوروه بشر ما تصوروه ، أو بما صوره لهم مضلوهم من زنادقة اليهود ليلبسوا
(٥) عليهم دينهم ، ويشوهوا به تفسير كلام ربهم ؟ ثم يكون منتهى شوط المنكرين عليهم أن يتأولوا تفسيرهم تأويلا ، والقرآن يتبرأ منه بلغته وأسلوبه وأدبه وهدايته والعبرة المرادة منه لخاتم رسله والمؤمنين به، ولا يغرنك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة والتابعين ، فلو لم يكن لنا من الادلة على وضعها عليهم او تصديقهم لقول بعض اليهود فيها إلا بطلان موضوعها في نفسه ، وكونه من علم الغيب في
(١٠) القصة التي لم يعلم رسول الله منها غير ما قصه الله عليه في هذه السورة كما صرح به في الآية (١٠٢) آخرها ـ لو لم يكن لنا من أدلة وضعها غير هذا لكفى، فكيف وهي مخالفة للقرآن في لغته كمخالفتها له في هدايته أيضا

رد قول الجمهور في تفسير همها وهمه عليه السلام

فأنا أرد على جميع من فسروا هم المرأة بغير ما اخترته لاهمه وحده ، وأقول
(١٥) لولا الغرور بالروايات الباطلة لم يخطر لاحد منهم غيره ، أرد عليهم بعبارة القرآن في مدلولها اللغوي فهو حجة عليهم فأقول :

أجمع أهل اللغة على ان الهم انما يكون بالاعمال ، لا بالشخوص والاعيان، وتحقيق معناه أنه مقاربة فعل تعارض فيه المانع والمقتضي فلم يقع لرجحان المانع، وهو الموافق لقول علماء الاصول في التعارض الأعم ، ولكن رجحان المانع هنا
(٢٠) قد يكون بارادة صاحب الهم ومنه هم يوسف ، وقد يكون من غيره ومنه هم هذه المرأة : كان همها واحدا وهو البطش بالضرب أو ما في معناه ، وكان المانع منه إرادته هو وعجزها هي بهربه ، وهاك الشواهد على القسمين

حكى الله عن المشركين في سورة الانفال والتوبة أنهم (هموا باخراج الرسول) ﷺ من بلده مكة ولكنهم لم يفعلوا لانهم خافوا ان يستجيب له غيرهم من العرب فيقوى أمره فرجحوا المانع بارادتهم ، وحكى عن المنافقين أنهم (هموا بما لم ينالوا) إذ حاولوا أن

يشردوا به بعيره في العقبة منصرفه من غزوة تبوك ، فلم ينالوا مرادهم عجزا منهم وحفظا من ربه له ﷺ وفي معناه قوله تعالى له (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) ولكنه قدم هنا لولا فكان دليلا على أنهم فكروا في ذلك وما قاربوا . وقال في بعض المؤمنين (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) أي تتركا المضي مع الرسول للقتال يوم أحد جبنا واتباعا لعبد الله بن أبيّ ومن معه من المنافقين ، ولكن غلب عليهما داعي الايمان فلم تفشلا وهو المعبر عنه بقوله تعالى (والله وليهما) فرجحتا المانع من الفشل بالمقتضي للجهاد (٥)

وفي المسند والصحيحين وغيرها عن ابن مسعود ان النبي ﷺ هم أن يأمر رجلا يصلي بالناس ثم يأمر من يحرق على المتخلفين عن صلاة الجمعة بيوتهم - وفي حديث ابي هريرة عند أبي داود والترمذي « ثم آتي قوما يصلون في بيوتهم ليست بهم علة فأحرقها عليهم » يعني ﷺ انهم يستحقون هذا حتى كاد يفعله ولكنه امتنع ترجيحا للمانع على المقتضى (١٠)

إذا علم هذا فمن الجلي أنه لا يصح تفسير (ولقد همت به) بهذا المعنى الذي أثبتناه بشواهد الكتاب والسنة الا بما قررناه ، وان ماقاله الجمهور باطل لمخالفته له ، بل للغة القرآن وهدايته ، وإنما خدعتهم به الروايات الباطلة ، وبيانه من وجوه (أولها) ان الهم لا يكون الا بفعل للهام والوقاع ليس من أفعال المرأة فتهم به وإنما نصيبها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه ، وهذا التمكين هو الذي يثبت به دخول الزوجية الذي تستحق فيه المرأة النفقة من زوجها كما هو مقرر في الفقه (ثانيها) أن يوسف عليه السلام لم يطلب من امرأة العزيز هذا الفعل فيسعى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه منه هما لها ، فان نصوص الآيات قبل هذه الآية وبعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدماته أيضا ، (ثالثها) لو أن ذلك وقع لكان الواجب في التعبير عنه ان يقال : « ولقد هم بها وهمت به » لان الاول هو المقدم بالطبع والوضع وهو الهم الحقيقي ، والهم الثاني متوقف عليه لا يتحقق بدونه (رابعها) أنه قد علم من القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ماطلبته طالبا جازما مصرة عليه ليس عندها أدنى تردد فيه ولا مانع منه يعارض المقتضي له ، فاذن (١٥) (٢٠)

لايصح ان يقال إنها همت به مطلقا حتى لو فرض جدلا انه كان قبولا لطلبه ومواتاة له ، اذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه ، وهو الذي يصح فيما حققناه من إرادة تأديبه بالضرب على أهون تقدير ، فهذا هو المتبادر من نص اللغة ومن السياق وأقربه قوله عز وجل

(٥) ٢٥ ﴿ واستبقا الباب ﴾ أي فر يوسف من أمامها هاربا الى باب الدار يريد الخروج منه للنجاة منها ترجيحاً للفرار على الدفاع الذي لا يعرف مداه ، وتبعته تبغي إرجاعه حتى لا يفلت من يدها وهي لا تدري أين يذهب اذا هو خرج ولا ما يقول وما يفعل ، وتكلف كل منهما ان يسبق الآخر ، فادركته ﴿ وقدت قميصه من دبر ﴾ إذ جذبته به من وراء فانقد ، قالوا إن القد خاص بقطع الشيء أو شقه طولا

(١٠) والقط قطعه عرضا ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ أي وجدا زوجها عند الباب ، وكان النساء في مصر يلقبن الزوج بالسيد واستمر هذا الى زماننا ، ولم يقل سيدها لان استرقاق يوسف غير شرعي وهذا كلام الله عز وجل لا كلام الرجل المسترق له ، ولعله كان قد تبناه بالفعل ، فلما دخل ورآهما في هذه الحالة المنكرة ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ أي شيئا يسوءك مهما يكن صغيراً أو كبيراً كما يدل عليه

(١٥) تنكير ﴿ سوءا ﴾ ﴿ إلا ان يسجن ﴾ أي الا سجن يعاقب به ﴿ أو عذاب أليم ﴾ موجع يؤديه ويلزمه الطاعة . وكان هذا القول مكراً وخداعا لزوجها من وجوه

(أحدها) إيهام زوجها ان يوسف قد اعتدى عليها بما يسوءه ويسوءها

(ثانيها) انها لم تصرح بذنبه لئلا يشتد غضبه فيعاقبه بغير ما تريده كبيعه مثلا

(ثالثها) تهديد يوسف وإنذاره ما يعلمه أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها ، فماذا قال

(٢٠) يوسف في دفع التهمة الباطلة عنه وإسنادها اليها بالحق ؟ ولولا ذلك لاسبل عليها ذيل الستر ؟

(٢٦) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) وَإِنْ

كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٨) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٩) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ

﴿ آيات تحقيق زوجها في القضية ﴾ (٥)

هذه الآيات الاربع في تحقيق القضية وعلم زوجها به براءة يوسف وثبوت خطيئتها وبدىء ببيان جوابه الصريح المنتظر بعد اتهامها إياه بالتلميح وهو

٢٦ ﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾ امتنعت وفرت كما ترى . فصارت النازلة أو القضية باختلاف قوليهما موضوع بحث وتحقيق وتشاور بين زوجها وأهلها لم يبين لنا القرآن تفصيله لأن المقصود من القصة فيه بيان نزاهة يوسف (١٠) وفضائله للعبرة بها وإنما علمنا ان هذا وقد بالفعل ، كما نعلم أنه كان متوقعا بحكم العادة والعقل ، من قوله تعالى ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ أي أخبر عن مشاهدة أو علم كالشاهدة ، وقيل حكم مستدلا بما ذكره وقد اختلفوا في هذا الشاهد كعادتهم في المبهمات التي يكثر فيها التخيل والاختراع هل كان صغيرا أو كبيرا أو حكيما أو من خاصة الملك أو حبر اناحي روي عن مجاهد انه قال ليس بآدمي ولا جان هو خلق من خلق (١٥) الله : مع قول الله إنه من أهلها ، ولكن الرواية عن ابن عباس وسعيد ابن جبير والضحاك انه كان صبياً في المهد يؤيدها ما رواه احمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم » وابن جرير عن ابي هريرة قال « عيسى بن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا في (٢٠) المهد » وهذا موقوف والمرفوع ضعيف . وقد اختاره ابن جرير وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا رد ، وأما هذه الشهادة وفسرها بعضهم بالحكم فهي قوله

﴿ إن كان قميصه قدمن قبل ﴾ أي من قدام ﴿ فصدقت ﴾ في دعواها انه أرادها سوءاً فانه لما وثب عليها أخذت بتلابيبه فجاذبها فانقد قميصه وهما يتنازعان ويتصارعان ﴿ وهو من الكاذبين ﴾ في دعواه أنها راودته فامتنع وفرقتبعته وجذبته تريد ارجاعه ﴿ وإن كان قميصه قد من دبر ﴾ أي من خلف ﴿ فكذبت ﴾ في دعواها

(٥) انه هجم عليها يريد ضربها ﴿ وهو من الصادقين ﴾ في قوله انه فر منها هاربا وهذه الشهادة ظاهرة على التفسير المختار الذى قررناه، ومشكلة على قول الجمهور كما صرح به بعض المدققين

٢٨ ﴿ فلما رأى قميصه قدمن دبر قال إنه من كيدكن ﴾ أي ان هذا العمل ومحاولة التفصل منه بالاتهام من كيدكن المعهود منكن معشر النساء ، فهو لم يخص الكيد

(١٠) بزوجه فيقال إنه أمر شاذ منها يجب التروي في تحقيقه بأكثر مما شهد به أحد أهلها ، وهو لا يتهم في التحامل عليها وظلمها، بل هو سنة عامة فيهن في التفصي من خطيئاتهن، فقد أثبت خطيئتها مستدلا عليها بالسنة العامة لهن في أمثالها ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ لا قبل للرجال به ولا يفطنون لحيلكن في دقائقه

قال بعض المفسرين : ولربات القصور منهن القدح المعلى من ذلك لأنهن أكثر

(١٥) تفرغا له من غيرهن، مع كثرة اختلاف الكيادات اليهن. وههنا يذكرون قوله تعالى (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) يستدلون به على ان كيد النساء أعظم من كيد الشيطان ، ولا دلالة فيه وإن فرضنا ان حكاية قول هذا اقراره، فالمقام مختلف وانما كيد النسوان بعض كيد الشيطان ، ثم التفت اليها والى يوسف قائلا

﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ الكيد الذي جرى لك ولا تتحدث به ولا

(٢٠) تخف من تهديدها لك ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ أيتها المرأة وتوبي إلى الله تعالى ﴿ انك كنت من الخاطئين ﴾ أي من جنس المجرمين مرتكبي الخطايا المتعمدين لها

ولهذا غلب فيه جمع المذكر فلم يقل من الخاطئات . وقد استدل الكرخي بقول هذا الوزير الكبير لزوجه على أنه كان قليل الغيرة وسيأتي ما يؤيده، وزعم أبو حيان في البحر أن هذا مقتضى طبيعة تربة مصر وبيئتها ، وأنها لرخاوتها لا ينشأ فيها الأسد ولو دخل فيها لا يبقى . وهذا كلام غير مبني على علم صحيح ، فاما سبب عدم نشوء الاسد في هذا القطر فهو خلوه من الغابات والادغال التي يعيش فيها ، (٥) وأما كونه اذا أدخل لا يبقى، فان صح بالتجربة في الماضي فسببه عدم وجود المأوى له، وهانحن أولاء نرى الاسود والفهود والنمور تعيش وتتناسل في حديقة الحيوان بالجيزة، وانما أشرنا الى هذا للرد على زاعميه والاطالة فيه ليست من موضوع التفسير

(٣٠) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣١) فَلَمَّا سَمِعَتْ (١٠) بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣٢) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ (١٥) الصَّاغِرِينَ (٣٣) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٤) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ

(حادثة مكر النسوة بامرأة العزيز ومراودة يوسف)

هذه الآيات الخمس في حادثة النسوة من كبار بيوتات مصر اللاتي مكرن بامرأة العزيز لتجمعهن بهذا الشاب الذي فتنها جماله ، وأذلها عفافه وكماله ، حتى راودته عن نفسه وهو فتاها ، ودعته إلى نفسها فردها وأباها ، خشية وطاعة لله ، وحفظا لأمانة السيد المحسن اليه ، أن يخونه في أعز شيء لديه ، لعله يصبو اليهن ، ويجذبه من جمالهن الطارىء المفاجيء له ، مالم يجذبه من جمالها الذي ألفه قبل أن يبلغ أشده ، وكان نظره اليها نظر الرقيق الى سيدته ، أو الولد إلى والدته ، وقد جاءت في السورة بأبدع صورة من الايجاز والبلاغة ، وأعلى تعبير من الادب والنزاهة ، وهو:

﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾ النسوة جمع قلة للمرأة من غير مادة لفظها ولم يبين لنا التنزيل عددهن ولا أسماءهن ولا صفاتهن لان الفائدة في العبرة محصورة في أن عملهن عمل جماعة قليلة يعهد في العرف ائتمارهن واتفاقهن على الاشتراك في مثل هذا المكر المنكر ، في مدينة كبيرة كعاصمة مصر ، التي بلغت منتهى فنن الحضارة ، وما تقتضيه من التمتع بالشهوات والزينة ، ولفظ النسوة مفرد مذكر فيجوز تذكير ضميره للفظه وتأنيثه لمعناه

ومن غريب فتنة الروايات الباطلة أن يدعي بعضهم أن اللواتي أجبن دعوتها الآتية منهن كن أربعين امرأة ، وهو مردود بالتعبير عن العاذلات كلهن بجمع القلة ، وكذا ماعلم بقرينة الحال والمقال من أنهن من بيوتات كبار الدولة ، فان نساء البيوت الدنيا وكذا الوسطى لا يتسامين بعد الانكار على امرأة العزيز كبير وزراء الملك ، إلى الوصول اليها بالمكر والحيلة ، لمشاركتها في فتنتها بل نعمتها ، أو سلب عشيقها منها ، ويؤيد ذلك ما يأتي من عاقبة حادثتهن ، وكان من الطبيعي المعهود أن يعرفن نبأها معه ، ويكون حديثهن الشاغل لهن في مجالسهن الخاصة ، وكان خلاصته

الوجيزة المؤدية لمرادهن منه ما حكاه التنزيل عنهن وهو قولهن ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ هذا خبر يراد به لازمه وهو التعجب والانكار الصوري من النواحي أو الجهات الأربع (١) كون المتحدث عنها امرأة عزيز مصر وزير الملك الاكبر في علو مركزها (٢) كونها تهين نفسها وتحقر مركزها بأن تكون مراودة لرجل عن نفسه وشأن مثلها إن سخت بعفتها أن تكون مراودة عن (٥) نفسها لا مراودة لغيرها كما تقدم (٣) أن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها (٤) أنها بعد ان افتضح أمرها وعرف بها سيدها وزوجها، وعاملها بالحلم، وأمرها باستغفار ربها، لا تزال مصرة على ذنبها، مستمرة على مراودتها، وهو

ما أفاده قولهن (تراود) وهو فعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿ قد شغفها حبا ﴾ أي قد اخترق حبه شغاف قلبها أي غلافه المحيط به، وغاص في سويدائه، فملك (١٠) عليها أمرها، حتى انها لا تبالي ما يكون من عاقبة تهتكها، واللائق بمقامها الكتمان، ومكابرة الوجدان ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ أي إنا لنراها بأعين بصائرنا بحكم رأينا غائصة في غمرة من الضلال البين الظاهر البعيد عن محجة الهدى والصواب. وهن ما قلن هذا إنكارا للمنكر وكرها للرذيلة، ولا حبا في المعروف ونصرا للفضيلة، وإنما قلنه مكرا وحيلة، ليصل اليها فيحملها على دعوتهن، (١٥) إرائتهن بأعين أبصارهن، ما يبطل ما يدعين رؤيته بأعين بصائرهن، فيعذرنها فيما عذلنها عليه، فهو مكر لا رأي

٣١ ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ وكان من المتوقع أن تسمعه لما اعتيد بين هذه البيوتات، من التواصل بالزيارات، واختلاف الخدم من كل منها الى الآخر، من ما قلنه الا لتسمعه فان لم يصل اليها عفوا، احتلن في إيصاله قصدا، فكان (٢٠) أردنه ﴿ أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا ﴾

أي دعتهن الى الطعام في دارها ، ومكرت بهن كما مكرن بها ، بأن أعدت وهيأت لهن مايتكئن عليه اذا جلسن من الكراسي والأرائك وهو المعتاد في دور الكبراء قال تعالى في صفة الجنة (متكئين فيها على الأرائك) وكان ذلك في حجرة مائدة الطعام ، وأعطت كل واحدة منهن سكينا ليقطعن به ما يأكلن من لحم أو فاكهة ،

(٥) وروي عن بعض مفسري السلف تفسير المتكأ بالطعام الذي يتكأ عليه أي يعتمد عليه لأجل قطعه كالجامد والشديد القوام ، دون الرخو كالموز الناضج من الفاكهة والحساء من الطعام ، والاتكاء على الشيء هو التمكن بالجلوس عليه أو الاعتماد عليه باليد أو اليدين ، قال في المصباح المنير : وتوكأ على عصاه اعتمد عليها واتكأ جلس متمكنا وفي التنزيل (وسررا عليها يتكئون) أي يجلسون

(١٠) وقال (وأعدت لهن متكأ) أي مجلسا يجلسن عليه . قال ابن الاثير : والعامة لا تعرف الاتكاء الا الميل في القعود معتمدا على أحد الشقين ، وهو يستعمل في المعنيين جميعا ، يقال اتكأ اذا أسند ظهره أو جنبه الى شيء معتمدا عليه ، وكل من اعتمد على شيء فقد اتكأ عليه وروى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير تفسير المتكأ هنا بالاترج أو الاترنج [1] لأنه لا يقطع الا بالاتكاء عليه ،

(١٥) وفي السنة أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يأكل وهو متكيء ﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ أي أمرت يوسف بالخروج عليهن وكان في حجرة أو مخدع في داخل حجرة الطعام التي كن فيها محجوبا عنهن ، ولو كان في مكان خارج عنها لقالت ادخل عليهن ، فعلم من هذا أنها تعمدت أن يفجأهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه عالمة بما يكون لهذه الفجاءة من تأثير الدهشة ، وهو ما حكاه التنزيل عنهن من قوله تعالى

(١) الاترج بالجيم المشددة ويقال اترنج وترنج ثمر من جنس الليمون الحامض

(٢٠) كبير مستطيل بشكل بطيخ الشمام يسميه العوام الكباد (بتشديد الباء) حامضه في جوفه قليل وسائره يؤكل بعد ازالة قشرة سطحه اللاصقة بحجمه الذي يؤكل اذا نضج

﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ أي أعظمنه ودهشن لذلك الحسن الرائع، والجمال البارع، وغبن عن شعورهن ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ بدلا من تقطيع ما يأكلن، ذهولا عما يعملن، بأن استمرت حركة السكاكين الارادية بعد فقد الارادة على ما كانت عليه قبل فقدها، ولكنها وقعت على أكف شمائلهن وقد سقط منها ما كان فيها من استرخائها بذهول تلك الدهشة فقطعتها أي جرحتها، ولولا (٥) استرخؤها لأبانتها، والظاهر ان مضيفتهن تعمدت جعلها مشحوذة فوق المعهود في سكاكين الطعام مبالغة في مكرها بهن، لتقوم لها الحجة عليهن بما لا يستطعن انكاره، واختلف المفسرون في هذا القطع هل كان قطع إبانة انفصلت به الكف من المعصم أو الاصابع من الكف؟ أم قطع جرح أطلق فيه لفظ بدء الشيء على غايته من باب المبالغة، وهو ما يسميه علماء البيان بالمجاز المرسل؟ الاكثرون على الثاني (١٠) وهو مستعمل الى اليوم بالارث عن قدماء العرب فيمن يحاول قطع شيء فتصيب السكين يده فتجرحها يقول كنت أقطع اللحم أو الحبل (مثلا) فقطعت يدي، كأنه يقول كاد ما اردته من قطع اللحم يكون بيدي مما أخطأت، ولا يقال فيمن جرح عضوا منه أو من غيره كالطبيب قاصدا جرحه إنه قطعه إلا إذا بالغ فيه، يقال أراد أن يجرح رجله ليخرج منها شظية نشبت فيها فقطعها، يريد أنه بالغ (١٥) فكاد يقطعها، وقد أشار الزمخشري الى مثل هذا القيد في استعمال القطع بمعنى الجرح فقال: كما تقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدي» يريد فاخطأت فجرحتها حتى كدت أقطعها ﴿ وقلن حاش لله (١) ما هذا بشرا ﴾ اي قلن هذا تعجبا وتنزيها له تعالى أن يكون خلق هذا الشخص العجيب في جماله وعفته من نوع البشر وهو مالم

١) كلمة حاش لله قرئت في السبع المتواترة بالالف (حاشا) وبدونها على (٢٠) الظاهر رسم المصحف الامام وهي حرف تفيد معنى التنزيه والبراءة في باب الاستثناء قال أخطأ القوم حاشا زيد وزيدت فيه اللام للخطاب كما تقدم في : هيت لك

يعهد له في الناس مثل، إنه ليس بشرا مثلنا ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ أي ماهذا إلا ملك من الملائكة الروحانيين تمثل في هذه الصورة البديعة التي تدهش الابصار وتخلب الالباب (كما كان يصورهم صناعهم الرسامون والنحاتون أرواح الملائكة والآلهة بالصور والتماثيل لتكريمها وعبادتها) وأحسن كلة رويت في الآية عن
(٥) مفسري السلف قول ابن زيد بن أسلم المدني: أعطتهن أترنجا وعسلا فكن يحززن الترنج بالسكين ويأكلنه بالعسل، فلما قيل له: اخرج عليهن خرج فلما رأينه أعظمنه وتهيبن به حتى جعلن يحززن أيديهن بالسكين وفيها الترنج ولا يعقلن ولا يحسبن الا أنهن يحززن الاترنج قد ذهبت عقولهن مما رأين وقلن (حاشا لله ماهذا بشرا) ماهكذا يكون البشر ماهذا إلا ملك كريم اهـ فسر قطع الايدي
(١٠) بحزها والحز أقل ما يحدثه السكين كالفرض في الخشبة، وهنا يتساءل المتسائلون: ماذا قالت لهن، وقد غلب مكرها مكرهن؟ وصار حالها وحالهن كما قال الشاعر:

أبصره عاذلي عليه ولم يكن قبلها رآه
فقال لي لو عشقت هذا ما لامك الناس في هواه
فظل من حيث ليس يدري يأمر بالعشق من نهاه

(١٥) ٣٢ ﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه﴾ أي حينئذ قالت لهن ما يعلم شرحه من قرينة الحال، ولما جاء في التنزيل من ايجاز واجمال: اذا كان الامر مارأيتن بأعينكن، وما أكبرتن في أنفسكن، وما فعلتن بأيديكن، وما قلتن بألسنتكن، فذلكن هو الامر البعيد الغاية الذي لمتنني فيه، وأسرفتن في عذلي عليه، إذ قلتن من قبل ما قلتن، فالمشار اليه بكاف البعد هو أمر لومهن لها، أو يوسف البعيد في حقيقته البديع
(٢٠) في صورته عما تصورونه به، فما هو عبراني أو كنعاني مملوك، وخادم صعلوك، قد شغف مولاته الملكة لرقه حبا وغراما، فهي تراوده عن نفسه ضلالا منها وهياما، بل هو أكبر من ذلك وأعظم، هو ملك روحاني، تجلى في شكل انساني، أوتي

من روعة الجمال ماخلب ألبابكن في الوهلة الاولى من ظهوره لكن ، فما قولكن في أمري معه وافتتاني به، وانما ترعرع في داري،وبلغ أشده واستوى بين سمعي وبصري ، فأنا أشاهده في قعوده وقيامه ، ويقظته ومنامه ، وطعامه وشرابه ، وحركته وسكونه ، وأخلوبه في ليلي ونهاري ، فأراه بشراً سويا ، إنسيا لاجنيا، وجسداً لاملكا روحانيا ، فأتراءى له في زينتي ، وأعرض على نظره ماظهر وما (٥) خفي من محاسني ، فيعرض عنها احتقاراً ، فأتصباه بكل ماأملك من كلام عذب يخلب اللب ،واين قول وخشوع صوت يرقق القلب،فلا يصبو إليّ ، وأمد عيني إلى محاسنه جامعة فيها كل ما يكنه قلبي من صبابة وشوق وخلاعة ، مع فتور جفن ، وانكسار طرف ،وطول ترنيق وتحديق ، فلا يرفع إلي طرفا ، ولا يميل نحوي عطفا ، بل تتجلى فيه الروح الملكية بأظهر مجاليها ، والعبادة الالهية بأكمل (١٠) معانيها ، أمثل هذا الملك القاهر يسمى عبداً طائعا ، ومثل هذه المرأة المقهورة تسمى سيدة مالكة ، تأمر بل تشير فتطاع ، وينكر عليها ان تراود فتمرد ، ثم تريد إظهار سلطانها فتعجز ؟ لقد انكشف القناع ، فلا أمر لمن لايطاع

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي استمسك بعروة عصمته التي ورثها عن نشؤا عليها ، كأنه يطلب مزيد الكمال منها (١٥)

ههنا أقول : والله ما عجبي من يوسف أن راودته مولاته فاستعصم وأن قالت له «هيت لك» فقال « أعوذ بالله » فكم قال هذا من ليس له مقامه في معرفته بالله ومراقبته لله ، وقد روي أن رجلا راود أعرابية في ليلة ليلاء ، وقال انه لايرانا غير كواكب هذه السماء ، فقالت وأين مكوكبها ؟

وإنما عجبي بل اعجابي بيوسف عليه السلام أن نظره إلى الله أو نظر الله (٢٠) اليه لم يدع في قلبه البشري مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التي شغفها حبا ، لتصبيها له قبل أن يخونها صبرها فتنفره بمصارحتها ، وان من أقوى غرائز البشر حب الانسان لمن يعتقد أنه يحبه، وان كان مشغول القلب عنه بحب من لايحبه، كما قيل

ونظرة المحبوب للمحب والله عن انسان عين القلب

وأما الخالي فلا يكاد يسلم من تأثير التحبب في استمالته كما قالت علية بنت المهدي العباسي * تحبب فان الحب داعية الحب * فالحب أقوى غرائز البشر، وأكبر ما يفتن الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وان من الحب لصادقا وكاذبا، وان من العشق لمذريا عفيفا، وشهويا فاسقا، وان مفاسده في الحضارة لكبيرة، وان فتنته لعظيمة، وسنعقد له فصلا في باب العبرة بالقصة في اجمال تفسير السورة ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ﴾ به، أقسم لكن آكد الايمان، ولتسمع ذلك منه الاذنان ﴿ ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ أي الأذلة المقهورين، تعني ان زوجها العزيز يعاقبه بما تريد من إلقائه في السجن وهو المدير له المتولي لأمره، ومن جعله كغيره من العبيد بعد تكريم مثواه وجعله كولده، وهذا أشد مما أنذرته أولا إذ قالت لزوجها عند التقائهما به لدى الباب (ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) هنالك أنذرته أحد العقابين : سجن غير مؤكد، أو عذاب أليم نكرة غير معرف، قد يكون ذلك السجن المطلق بأخف صوره وأقلها، والعذاب المنكر بأهون أنواعه وألطفها، فذاك بحبسه في حجرة من الدار، وهذا بلطمة يحتدم بها ما في خديه من الاحمرار، وهنا أنذرته الجمع بينهما، وأكدت السجن بالقسم وبنون التوكيد الثقيلة، وفسرت العذاب بالصغار الذي تأباه الانفس الكبيرة، واكتفت فيه بالنون الخفيفة(١) وهو أشق على مثل يوسف من العذاب الاليم بالاعمال الشاقة، لانها أهون على كرام الناس من الهوان والصغار باحتقار النفس، وفعله صغر كتعب، وأما صغر كضخم فهو خاص بصغر الجسم، ومن الاول قوله تعالى(٩ :٢٨ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

وفي هذا التهديد من ثقة هذه المرأة بسلطانها على زوجها الوزير الكبير على علمه بأمرها، واستعظامه لكيدها، ما حقه أن يخيف يوسف من تنفيذ إرادتها، ويثبت عنده عدم غيرته عليها، كما هو شأن كثير من الوزراء المترفين، ولاسيما العاجزين عن

(١) وكتبت في المصحف الامام (وليكونا) بالالف (كنسفعا) على حكم الوقف لشبهها بالتنوين

إحصان أزواجهن، والمحرومين من نعمة الاولاد منهن، وماذا فعل يوسف وما قال وقد علم ان هذه المرأة الماكرة قد عيل صبرها، وهتكت سترها، وكاشفت نسوة كبار بلدها بما تسر وما تعلن من أمرها؟ ورأى أنهن تواطأن معها على كيدها، وراودنه عن نفسه كما راودته عن نفسها، وهو تؤاطؤ لا قبل لرجل به، إلا بمعونة ربه وحفظه

٣٣ ﴿ قال رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه ﴾ أي قل: أي ربي، (٥) الغالب على أمري، العالم بسري وجهري، ان الحبس والاعتقال في السجن مع المجرمين حيث شظف العيش أحب الى نفسي وآثر عندي على ما يدعوني اليه هؤلاء النسوة من الاستمتاع بهن في ترف هذه القصور وزينتها، والاشتغال بحبهن عن حبك، وبقربهن عن قربك، وبمغازلتهن عن مناجاتك، وإنما يفسر ويشرح هذا بما يعلم من سياق القرآن، ومن طباع الرجال والنسوان، ومن التاريخ العام، والسنن (١٠) الاجتماعية والاخلاق والعادات، وسيرة الصالحين والانبياء، دون حاجة الى ما لا سند له ولا دليل عليه من الروايات ودسائس الاسرائيليات، ومنه أنه ليس في السجن إلا الاعتبار بأحكام الملوك وأعوانهم من الوزراء والقضاة على من يسخطون عليهم بحق أو بغير حق، مما يزيدني إيمانا بقضائك، وصبراً على بلائك، وشكراً لنعمائك، وعلما بشئون خلقك، ويفتح لي باب الدعوة الى معرفتك وتوحيدك، والاستعداد (١٥) لاقامة الحق، ونصب ميزان العدل، فيما عسى أن تخولني من الامر، اذا مكنت لي كما وعدتني في الارض

هذا ما يتبادر الى الفهم من توجيه التفضيل في الحب تدل عليه حالة يوسف وسابق قصته ولاحقها بغير تكلف ولا تحكم، كما هو دأبنا في كل ما نفسر به هذه القصة وغيرها، وهو يصدق في جعل اسم التفضيل هنا لا مفهوم له أو على غير بابه كما يقال، (٢٠) فليس المراد ان ما يدعونني اليه محبوب عندي والسجن أحب إلي منه، وانما معناه ان هذين الامرين اذا تعارضا وكان لا بد من أحدهما فالسجن آثر وأولى بالترجيح لان ما فيه من المشقة له فائدة عاجلة، وعاقبة صالحة، وأما مجاهدة هؤلاء النسوة مع المكث معهن، فهو أشق على المؤمن العارف بربه، وليس له من الفائدة والعاقبة ما للسجن، فهو أي اسم التفضيل من قبيل قول المحدثين في بعض الاحاديث الضعيفة

هو أصح ما في هذا الباب ، يعنون أقوى ما فيه وإن كانت كلها غير صحيحة ، بل هو كقوله الآتي (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)

وقيل يجوز أن يكون المراد من التفضيل ترجيح الاحب بمقتضى الايمان وحكم الشرع ، على المحبوب بمقتضى الغريزة وداعية الطبع ، فان الانبياء والصلحاء كسائر البشر يحبون النساء ويشتهون الاستمتاع بهن ، ولكنهم يكرهون أن يكون من غير الوجه المشروع ، وشره الاعتداء على نساء الناس ، ولما قال النبي ﷺ للفقراء « وفي بضع أحدكم صدقة » قالوا يارسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال « أرأيتم اذا وضعها في حرام كان عليه وزر ؟ كذلك اذا وضعها في الحلال كان له أجر » رواه مسلم من حديث أبي ذر . وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله حيث لا ظل إلا ظله في موقف القيامة « ورجل دعته امرأة ذات جمال ومنصب الى نفسها فقال اني أخاف الله » وهو حديث متفق عليه . وذلك بأن للمرأة ذات المنصب سلطانا على قلب الرجل فوق سلطان الوضيعة في طبقتها وان كانت جميلة الصورة فيثقل على طبعه وتضعف ارادته أن يرد طلبها فكيف بها اذا جمعت بين سلطان الجمال وسلطان المنصب ثم ذات له ودعته الى نفسها ؟

(فان قيل) إن المرأة إذا ابتذلت نفسها فبذلها للرجل بذلا ، وتحول دلها عليه مهانة وذلا ، فانه يحتقرها ، وتتحول رغبته فيها رغبة عنها (١) وكلما تمنعت عليه ازداد حبا لها وشوقا اليها ، كما قال الشاعر :

(١) قد جرى بحث علمي خلقي في هذه المسألة في محفل أدبي من استاذي المدارس فقلت انني استغرب أن يهبط فساد الفطرة البشرية ببعض الفساق فيقودهن الى مواخير البغاء كيف لا يقرفون من رؤية من فيها وإن تصورحالهن أو رؤية تبذلهن لحقيق بأن ينفر الطبع السليم من جنس النساء ، فقال استاذ خبير بحال هذه الطبقات صار بعد ذلك من كبار رجال وزارة المعارف : إن افسد هؤلاء الفاسقين الأرذلين فطرة لا يكاد يغشى هذه المواخير الا وهو سكران ، لا يشعر بشيء يمتاز به الانسان على الحيوان ، وانما اذكر امثال هذه المسائل في تفسير القرآن الشريف لانه هداية وعبرة لجميع المكلفين فيجب أن يكون للدعاة الى هدايته علم بكل ما ابتلوا به من فساد في الجملة ، وهذه السورة من سوره هي المبينة للقدوة العليا في موضوع افتتان الرجال بالنساء والنساء بالرجال .

منعت شيئا فأكثرت الولوع به أحب شيء الى الانسان ما منعا

(قلنا) نعم ان هذا مقتضى الطبع السليم كما ان ردذات الجمال والمنصب من ضعف الرجل أمام المرأة، ولكن المراودة قلما تبلغ من هؤلاء حد الوقاحة في الصراحة فتكون منفرة، وقد علمت انها احتيال ومراوغة لتحويل الارادة، وان لنساء الأكابر في الامصار التي أفسدتها الحضارة كيداً فيها وخداعا، وإن لأستاذهن الشيطان مسالك من (٥) إغوائهن والاغواء بهن بخر أقوى الرجال تجاهها صريعا، ولكن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وعناية ربهم بهم تغلب غوايته ومكر النسوان، وقد لجأ يوسف عليه السلام إلى هذه العناية، إذ عرض له كيد بضع نسوة من ذوات الجمال والمنصب لا بضاعة لهن إلا أبضاعهن، فقال ﴿وإن لا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ يعني إن لم تحول عني ما ينصبنه لي من شراك الكيد، وتمدد نه من شباك الصيد، (١٠) لم أسلم من الصبوة اليهن، وهي الميل إلى موافقتهن على أهوائهن، يقال صبا يصبو صبوًّا وصبوة إذا مال إلى اللهو وما يطيب للنفس من اتباع الهوى، ومنه ريح الصبا وهي التي تهب على بلاد العرب من مشرق الشمس لان النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها، حتى ان تغزل شعرائهم بها ليضاهي، تغزلهم بعشيقاتهم رقة وصبابة، ولاسيما اذا اقترنا وامتزجا كقول بعضهم: (١٥)

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فانه اذا هب كان الوجد أيسر خطبه

﴿وأكن من الجاهلين﴾ أي من صنف السفهاء الذين تستخفهم أهواء النفس فيعملون السوء بجهالة وهي ما يخالف مقتضى الحلم والأناة، أو مقتضى العلم والحكمة، فان من يعيش بين أمثال هؤلاء النسوة الماكرات المترفات مثلي لا مفر له من الجهل (٢٠) الا بعصمتك وحفظك بما هو فوق الاسباب المعتادة، وهذا نص صريح منه (ع.م) بأنه ما صبا اليهن، ولا أحب أن يعيش معهن، وإنما بين مقتضى الاستهداف لكيد هؤلاء النساء، وسأل ربه أن يديم له ما عوده في قوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء)

٣٤ ﴿فاستجاب له ربه﴾ ما دعاه به وطلبه منه الذي دل عليه هذا الابتهال

والالتجاء اليه وطوى ذكره إيجازاً ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ فلم يصب اليهن ، فيحتاج إلى جهاد نفسه لكفها عن الاستمتاع بهن، وعصمه أن يكون من الجاهلين باتباع هواهن ﴿ إنه هو السميع ﴾ المجيب لمن أخلص له الدعاء ، جامعا بين مقامي الخوف والرجاء ﴿ العليم ﴾ بصدق ايمانهم ، وما يصلح من أحوالهم ، فعطف
(٥) استجابة ربه له وصرف كيدهن عنه بالفاء الدالة على التعقيب وتعليلها بأنها مقتضى كمال صفتي السمع والعلم ، دليل على أن ربه عز وجل لم يتخل عن عنايته بتربيته ، اقصر زمن يهتم فيه بأمر نفسه ومجاهدته ، ومؤيد لقوله تعالى في أول سياق هذه الفتنة (والله غالب على أمره)

٣٥ ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ﴾ بدا هذه من البداء (بالفتح) لا من
(١٠) البدو الطاق، أي ثم ظهر لهم من الرأي ما لم يكن ظاهرا من قبل، ومنه كلمة سيدنا علي البليغة [فما عدا مما بدا] أي فما عداك وصرفك عما كنت فيه مما بدا لك الآن وكان خفيا عنك قبله ، ولذلك عطفت الجملة بثم التي تفيد الانتقال مما كانوا فيه الى طور جديد بعد التشاور والتروي في الامر ، وضمير [لهم] يرجع الى أهل دار العزيز وامرأته ومن يعنيه أمرهما كالشاهد الذي شهد عليها من أهلها، والمراد بالآيات
(١٥) ما شهدوه واختبروه من الدلائل على أن يوسف انسان غير الأناسي التي عرفوها في عقيدته وايمانه وأخلاقه من عفة ونزاهة واحتقار للشهوات والزينة والإترف المتبع في قصور هذه الحضارة، ومن عناية ربه الواحد الأحد به كما يؤمن ويعتقد ، فمن هذه الآيات أن تفنن سيدته في مراودته لم يحدث أدنى تأثير في جذب خلسات نظره، ولا في خفقات قلبه ، بل ظل معرضا عنها متجاهلا لها ، حتى اذا ما صارحته بكلمة
(٢٠) [هيت لك] اقشعر جلده ، واستعاذ بربه، رب آبائه الذين يفتخر باتباع ملتهم ، وغيرها بالخيانة لزوجها (ومنها) انها لما غضبت وهمت بالبطش به هم بمقاومتها والبطش بها وهي سيدته ، وما منعه من ذلك الا ما رأى من البرهان في دخيلة نفسه، مؤيدا لما يعتقده من صرف ربه السوء والفحشاء عنه (ومنها) انها لما اتهمته

بالتعدي عليها وأرادوا التحقيق في المسألة شهد شاهد من أهلها هو جدير بالدفاع عنها، بما تضمن الحكم عليها بأنها كاذبة في اتهامها اياه بارادة السوء بها، وانه صادق فيما ادعاه من مراودتها اياه عن نفسه (ومنها) مسألة انتشار خبرها معه وخوض نساء المدينة في افتتانها به وإذلال نفسها ببذلها له مع إعراضه عنها (ومنها) مسألة أمكر هؤلاء النسوة وأعمقهن كيداً معه، إذ حاولن رؤيته وتواطأن عن مراودته، ودهشتهن مما (٥) شاهدن من جماله، حتى قطعن أيديهن بدلا مما في أيديهن وهن لا يشعرن. فجميع هذه الآيات تثبت أن بقاءه في هذه الدار بين ربتها وصديقاتها من هؤلاء النسوة مثار فتنة للنساء لا تدرك غايتها، وان الحكمة والصواب في أمرها هو تنفيذ رأيها الاول في سجنه - وإن كانت سيئة النية ماكرة فيه - لإخفاء ذكره، وكف ألسنة الناس عنها في

أمره، فأقسموا ﴿ ليسجننه حتى حين ﴾ أي الى أجل غير معين حتى يكونوا (١٠) مطلقي الحرية في طول مكثه وقصره وإخراجه، ويروا ما يكون من تأثير السجن فيه وحديث الناس عنه. وهذا القرار يدل على أن هذه المرأة كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير تقوده بتزيينه كيف شاء هواها، وانه كان فاقدا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس عبيد الشهوات. وقد أعجبني فيه قول الزمخشري على قلة ما أعجبني من أقوال المفسرين في هذه القصة التي شوهتها عليهم (١٥) الروايات الاسرائيلية المخترعة والعناية باعرابها. قال في تفسير ما رأوا من الآيات: وهي الشواهد على براءته، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وفتلها منه في الذروة والغارب[1] وكان مطواعة لها، وجملا ذلولا زمامه في يدها، حتى أنساه

---

١) مثل يضرب لمن يتلطف في خداع غيره حتى يتمكن من تذليله وقياده، والذروة بالكسر والضم أعلى الشيء والمراد هنا أعلى سنام البعير، والغارب ما بين العنق والسنام (٢٠) منه وهو الذي يلقى عليه الخطام وهو بالكسر حبل يوضع في عنقه ويثنى في خطمه أي أنفه ليقاد به بسهولة. وأصل هذا الفتل فيهما ان يجيء الرجل بالخطام فيخفيه عن البعير لئلا يمتنع من وضعه ويأخذ يفتل ذروته وغاربه فيلذ له ذلك حتى يأنس به فاذا تمكن منه وضع له الخطام وقاده به فانقاد

ذلك ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها في سجنه لالحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته ، وطمعت في أن يذلله السجن ويسخره لها اه

وجملة القول في هذه الحادثة ان يوسف (ع.م) كان أكمل مثل للعفة والصيانة والامانة من أولها الى آخرها ، وهي في سفر التكوين ناقصة ومخالفة لما هنا في دعوى المرأة ، والله اعلم من مؤلف سفر التكوين المجهول بما كان وبما ينفع الناس (٥)

﴿ عبارة سفر التكوين في الحادثة من الاصحاح ٣٩ ﴾

*) وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي ٨ فأبى وقال لامرأة سيده هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت وكل ماله قد دفعه الى يدي ٩ ليس هو في هذا البيت أعظم مني ، ولم يمسك عني شيئا غيرك لانك امرأته . فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطيء الى الله ١٠ وكان اذ كلمت يوسف يوما فيوما انه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها

١١ ثم حدث نحو هذا الوقت انه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت ١٢ فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي . فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج الى خارج ١٣ وكان لما رأت انه ترك ثوبه في يدها وهرب الى خارج ١٤ انها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة : انظروا قد جاء الينا برجل عبراني ليداعبنا دخل الي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم ١٥ وكان لما سمع اني رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج الى خارج

١٦ فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده الى بيته ١٧ فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل الي العبد العبراني الذي جئت به الينا ليداعبني ١٨ وكان لما رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب الى خارج

١٩ فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك ان غضبه حمي ٢٠ فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان اسرى الملك محبوسين فيه . وكان هناك في بيت السجن

٢١ ولكن الرب كان مع يوسف وبسط اليه لطفا وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن ٢٢ فدفع رئيس بيت السجن الى يد يوسف جميع الاسرى الذين في بيت السجن . وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل ٢٣ ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما في يده لان الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه اه

(٣٦) وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا، وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (٥) وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٨) وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

(سيرة يوسف عليه السلام فى السجن)

هذه الآيات الثلاث في إظهار معجزة النبوة ، والتمهيد لدعوة الرسالة (١٠)

٣٦ ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ هذا عطف على مفهوم ما قبله أي فسجنوه ودخل معه السجن بتقدير الله الخفي الذي يعبر عنه جاهلوه بالمصادفة والاتفاق : فتيان مملوكان تبين فيما بعد انهما من فتيان ملك مصر . روي عن ابن عباس ان أحدهما خازن طعامه والآخر ساقيه ، فماذا كان من شأنه معهما ؟ ﴿ قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا ﴾ أي رأيت في المنام رؤيا واضحة جلية كأني أراها في اليقظة (١٥) الآن وهي انني أعصر خمرا ، أي عنبا ليكون خمرا لا ليشرب الآن ، وقراءة ابن مسعود وأبي في الشواذ « أعصر عنبا » تفسير لا قرآن ، وما كل العنب يعصر لأجل التخمير فما نقل من أن عرب غسان وعمان يسمون العنب خمرا فمحمول على هذا النوع المخصوص منه لكثرة مائه وسرعة اختماره ، دون ما يؤكل في الغالب تفكها لكبر

حجمه واكتناز شحمه وقلة مائه، ولكل منهما أصناف ﴿وقال الآخر اني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه﴾ الطير جمع واحده طائر، وتأنيثه أكثر من تذكيره، وجمع الجمع طيور وأطيار ﴿نبئنا بتأويله﴾ أي قال له كل واحد منهما نبئني بتأويل ما رأيت، أي بتفسيره الذي يؤول اليه في الخارج إذا كان حقا لا من أضغاث الاحلام، (٥) ويصح إعادة الضمير المفرد على الكثير كاسم الاشارة بمعنى المذكور أو ما ذكر، ومنه قول الراجز:

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجسم توليع البهق

﴿إنا نراك من المحسنين﴾ علما سؤالهم إياه عن أمر يهمهم ويعنيهم دونه، برؤيتهم إياه من المحسنين بمقتضى غريزتهم الذين يريدون الخير والنفع للناس وإن لم يكن لهم فيه منفعة خاصة ولا هوى، وقيل من المحسنين لتأويل الرؤى، وما قالا هذا (١٠) القول إلا بعد أن رأوا من سعة علمه وحسن سيرته مع أهل السجن ما وجه اليه وجوههما، وعلق به أملهما. وهذا من ايجاز القرآن الخاص به.

اقترص يوسف (ع م) ثقة هذين السائلين بعلمه وفضله وإصغاءهما لقوله واهتمامهما بما يسمعان من تأويله لرؤياهما فبدأ حديثه بما هو أهم عنده وهو دعوتهما وسائر من في السجن إلى توحيد الله عز وجل، فعلم من هذا أن وحي الرسالة جاءه (١٥) بعد دخول السجن فحقق قوله (رب السجن أحب إلي مما يدعونني اليه) كما ان وحي الالهام جاءه عند إلقائه في غيابة الجب على ما سبق، وحكمة هذا من ناحيته عليه السلام ظاهرة بما بيناه من أن الله تعالى جعل له في كل محنة ظاهرة، منحة باطنة، وفي كل بداية محرقة، نهاية مشرقة، تحقيقا لما فهمه أبوه من اجتباء ربه له الخ. وحكمته من ناحية دعوة الدين ان أقوى الناس وأقربهم استعدادا لفهمها والاهتداء (٢٠) بها: هم الضعفاء والمظلومون والفقراء، وأعتاهم وأبعدهم عن قبولها هم المترفون والمتكبرون، بدأ يوسف بالدعوة بعد مقدمة في بيان الآية الدالة على صدقه والثقة بقوله وهي إظهار ما من الله به عليه من تعليمه ما شاء من أمور الغيب وأقربها الى اقتناعهم ما يختص بمعيشتهم، فكان هذا ما يقتضيه المقام وتوجبه الرسالة من جوابهم، وهو:

٣٧ ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ وهو ما لا تدرون من حيث لا تدرون،

وإني وإياكم في هذا السجن لمحجوبون ﴿ إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ أي أخبرتكما به وهو عند أهله وبما يريدون من إرساله وما ينتهي اليه بعد وصوله اليكما: أنبئكما بكل هذا من شأن هذا الطعام قبل أن يأتيكما ، روي أن رجال الدولة كانوا يرسلون الى المجرمين أو المتهمين طعاما مسموما يقتلونهم به وأن يوسف أراد هذا، وما قلته يشمل هذا إذا صح ، وهو ما يفهم من تسمية إنبائهما به تأويلا ، فان التأويل (٥) الاخبار بما يؤول اليه الشيء وهو فرع معرفته ، ولذلك قال بعضهم إنه سماه تأويلا من باب المشاكلة لما سألاه عنه من تأويل رؤياهما ، وقال بعضهم ان المراد لا تريان في النوم طعاما يأتيكما إلا نبأتكما بتأويله، وهو بعيد . وفسر الزمخشري ومن قلده تأويله [ببيان ماهيته وكيفيته لان ذلك يشبه تفسير المشكل والاعراب عن معناه] اه وهو تكلف سرى اليه من مفهوم التأويل في اصطلاح علماء الكلام (١٠) وأصول الفقه لا من صميم اللغة ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ أي ذلك الذي أنبئكما به بعض ما علمني ربي بوحي منه إلي، لا بكهانة ولا عرافة ولا تنجيم ، ولا ما يشبهها من طرق صناعية أو تعليم بشري يلتبس به الحق بالباطل ، ويشتبه الصواب بالخطأ ، فهو آية له كقول عيسى لبني إسرائيل من بعده (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴾ خالق السموات والارض (١٥) وما بينهما كما يجب له من التوحيد والتنزيه ، أي تركت دخولها واتباع أهلها من عابدي الأوثان المنتحلة على كثرة أهلها ودعوتهم اليها ، وليس المعنى أنه كان متبعا لها ثم تركها ، فقوله تعالى (أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟) أي بعد موته فلا يبعث ، ليس معناه أنه كان سدى قبله ، فترك الشيء يصدق بعدم ملابسته مطلقا ، وبالتحول عنه بعد التلبس به ، ويفرق بينهما بقرينة الحال أو المقال أو (٢٠) كليهما كما هنا . والمتبادر أنه أراد بهؤلاء القوم الكنعانيين وغيرهم من سكان أرض الميعاد التي نشأ فيها ، والمصريين الذين هو فيهم وبينهم ، فانهم اتخذوا من دون الله آلهة معروفة في التاريخ أعظمها الشمس واسمها عندهم (رع) ومنها

فراعنتهم والنيل وعجلهم (أبيس) وإنما كان التوحيد خاصا بحكامهم وعلمائهم ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أي وهم الآن يكفرون بالمعنى الصحيح للآخرة فان المصريين وان كانوا يؤمنون بالآخرة والحساب والجزاء الذي دعا اليه الانبياء إلا أنه فشا فيهم تصوير هذا الايمان بصور مبتدعة ومنها ان فراعنتهم يعودون
(٥) الى الحياة الاخرى بأجسادهم المحنطة ويعود لهم السلطان والحكم ولهذا كانوا يدفنون أو يضعون معهم جواهرهم وغيرها، ويبنون الاهرام لحفظ جثثهم وما معها ، ولعله لهذا أكد الحكم بالكفر بها باعادة الضمير « هم » ليبين ان ايمانهم بالآخرة على غير الوجه الذي جاءت به الرسل فهو غير صحيح

٣٨ ﴿ واتبعت ملة آبائي ﴾ أنبياء الله الذين دعوا الى توحيده الخالص ،
(١٠) وبين أسماءهم من الأب الأعلى الى الادنى بقوله ﴿ ابراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا ، وبين أساس ملتهم التي اتبعها وراثة وتلقينا فكانت يقينا له ولهم ووجدانا ، بقوله ﴿ ما كان لنا ﴾ أي ما كان من شأننا معشر الانبياء (١) ولا مما يقع منا ﴿ أن نشرك بالله من شيء ﴾ نتخذه ربا مدبراً أو إلها
(١٥) معبوداً معه لا من الملائكة ولا من البشر (كالفراعنة) فضلا عما دونهما من البقر (كالعجل أبيس) أو من الشمس والقمر ، أو ما يتخذ هذه الآلهة من التماثيل والصور ﴿ ذلك من فضل الله علينا ﴾ بهدايتنا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته وألوهيته بوحيه وآياته في خلقه ﴿ وعلى الناس ﴾ بارسالنا اليهم ننشر فيهم دعوته ، ونقيم عليهم حجته ، ونبين لهم هدايته ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ نعم الله عليهم ، فهم يشركون

١) في سفر التكوين الذين يعدونه من التوراة أن عيسو بن اسحق البكر كان
(٢٠) يعبد الاصنام وان اباه كان يفضله في الحب على أخيه وتوأمه يعقوب الموحد لله ، وان يعقوب احتال على ابيهما اسحق حتى اعطاه بركة البكورية التي هي حق عيسو لأنه خرج من بطن أمه قبله ، فتأمل الفرق بين هداية القرآن وهدايته !!!

به أربابا وآلهة من خلقه ، يذلون أنفسهم بعبادتهم ، وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم ، ثم صرح لهما ببطلان ما هما عليه من الشرك ونبههم إلى برهان التوحيد فقال

(٣٩) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٤٠) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥)

﴿ الدعوة الى التوحيد الخالص ببرهانه ﴾

٣٩ ﴿ياصاحبي السجن﴾ أضافهما إلى السجن بمعنى ياساكني السجن أو بمعنى ياصاحبي في السجن كما قيل * ياسارق الليلة أهل الدار * أي سارقهم فيها (١٠) ﴿أأرباب متفرقون﴾ هذا استفهام تقرير بعد تحبير ، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد ، وكان المصريون المخاطبون به يعبدون كغيرهم من الامم أربابا متفرقين في ذواتهم ، وفي صفاتهم المعنوية التي ينعتونهم بها ، وفي صفاتهم الحسية التي يصورها لهم الكهنة والرؤساء بالرسوم المنقوشة والتماثيل المنصوبة في المعابد والهياكل ، وفي الاعمال التي يسندونها اليهم بزعمهم ، فهو يقول لصاحبيه «أأرباب (١٥) متفرقون» أي عديدون هذا شأنهم في التفرق والانقسام ، وما يقتضيه بطبعه من التنازع والاختلاف في الاعمال ، والتدبير المفسد للنظام ، هو ﴿خير﴾ لكما ولغيركما من الافراد والاقوام ، فيما تطلبون ويطلبون من كشف الضر وجلب النفع ، وكل ما تحتاجون فيه إلى المعونة والتوفيق من عالم الغيب ﴿أم الله﴾ الواجب الوجود ، الخالق

لكل موجود ﴿الواحد﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، المنفرد بالخلق والتقدير والتسخير، الذي لا ينازع ولا يعارض في التصرف والتدبير ﴿القهار﴾ بقدرته التامة وإرادته العامة، وعزته الغالبة، لجميع القوى والسنن والنواميس التي يقوم بها نظام العوالم السماوية والارضية، كالنور والهواء والماء الظاهرة، والملائكة والشياطين الباطنة، التي كان الجهل بحقيقتها، وسبب اختلاف مظاهرها، هو سبب عبادتها والقول بربوبيتها؟ الجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان أدركا السؤال: بل هو الله الواحد القهار، لا رب غيره ولا إله سواه، ولذلك رتب عليه قوله

٤٠ ﴿ما تعبدون من دونه﴾ أي غير هذا الواحد القهار ﴿إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ من قبلكم أي وضعتموها لمسميات تخيلتموها صفات الربوبية وأعمال الرب الواحد، فاتخذتموها أربابا وما هي بأرباب تخلق ولا ترزق، ولا تضر ولا تنفع، ولا تدبر ولا تشفع، فهي في الحقيقة لا مسميات لها بالمعنى المراد من لفظ الرب الاله المستحق للعبادة، حتى يقال إنها خير أم هو خير ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي بتسميتها أربابا على أحد من رسله ﴿من سلطان﴾ أي أيّ نوع من أنواع البرهان والحجة فيقال إنكم تتبعونه بالمعنى الذي أراده تعالى منه، تعبداً له وحده وطاعة لرسله، فيكون اتباعها او تعظيمها غير منافٍ لتوحيده، كاستلام الحجر الاسود عند الطواف بالكعبة المعظمة مع الاعتقاد بأنه حجر لا ينفع ولا يضر كما ثبت في الحديث — فهي تسمية لا دليل عليها من النقل السماوي فتكون من أصول الايمان، ولا دليل عليها من العقل فتكون من نتائج البرهان

وأقول إنه لما قامت هذه الحجة على النصارى ببطلان ثالوثهم الذي اتبعوا فيه ثالوث قدماء المصريين والهنود ادعوا أن له أصلا من الوحي الذي أنزله الله على المسيح عيسى بن مريم أو تلاميذه، وأنه بهذا لا ينافي التوحيد فالثلاثة واحد والواحد ثلاثة، والذي حققه علماء الافرنج المؤرخون تبعاً للمسلمين أنه لا أصل له

من الوحي ، وان كلمات الآب والابن وروح القدس لها معان عند الذين آمنوا بالمسيح في حياته هي غير المعاني الاصطلاحية عند كنائس الكاثوليك والارثوذكس والبروتستانت الجامعة لاكثر النصارى ، والاحرار العقليون من نصارى الافرنج يرفضونها كلهم وهم ملايين ولكن ليس لهم كنيسة جامعة ، وإنما يقولون في المسيح ماقرره الاسلام فيه وأكثرهم لا يعلمون ذلك ، ولو عرفوا حقيقة الاسلام لكانوا (٥) كلهم مسلمين ، ولكنهم سيعلمون ويسلمون اتباعا ، كما أسلموا فطرة وعقلا

﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي ما الحكم الحق في الربوبية ، والعقائد والعبادات الدينية ، إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله ، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه ولا بعقله واستدلاله ، ولا باجتهاده واستحسانه ، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الازمنة والامكنة (١٠)

ثم بين أول أصل بنى عليها لانه أول مايجب أن يسأل عنه من عرفها فقال

﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ بل إياه وحده فادعوا واعبدوا ، وله وحده فاركعوا واسجدوا ، واليه وحده فتوجهوا ، حنفاء لله غير مشركين به ملكا من الملائكة الروحانيين ، ولا ملكا من الملوك الحاكمين ، ولا كاهنا من المتعبدين ، ولا شمسا ولا قمرا ، ولا نجما ولا شجرا ، ولا نهرا مقدسا كالكنج والنيل ، ولا حيوانا كالعجل أبيس ، (١٥) فالمؤمن الموحد لله لا يذل نفسه بالتعبد لغير الله من خلقه بدعاء ولا غيره ، لايمانه بأنه هو الرب المدبر المسخر لكل شيء ، وأن كل ماعداه خاضع لارادته وسننه في أسباب المنافع والمضار ، لا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى التي هي قوام جنسه ومادة حياة شخصه (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فاليه وحده الملجأ في كل مايعجز عنه الانسان أو يجهله من الاسباب ، واليه المصير للجزاء على الاعمال يوم الحساب (٢٠)

﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي الحق المستقيم الذي لا عوج فيه من جهالة الوثنيين ، الذي دعا اليه جميع رسل الله أقوامهم ومنهم آبائي : ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك حق العلم لاتباعهم أهواء آبائهم الوثنيين ،

الذين اتخذوا لأنفسهم أربابا متفرقة ليس لها من الربوبية أدنى نصيب

ومن العجيب أن هذه الحقيقة التي بينها القرآن في مئات من الآيات البينات تتلى في السور الكثيرة بالاساليب البليغة ، صار يجهلها كثير من الذين يدعون اتباع القرآن ، فمنهم من يجهل حقيقة التوحيد نفسه فيتوجهون إلى غير الله إذا مسهم الضر أو عجزوا عن بعض ما يحبون من النفع فيدعونهم خاشعين راغبين من دون الله ، ويسمونهم شفعاء ووسائل عند الله ، كما كان يفعل من كان قبلهم من المشركين ، ومنهم من يعرف معنى التوحيد ولكنهم يجهلون أن جميع رسل الله دعوا اليه جميع الامم ، زاعمين ان هذه الدعوة انفرد بها ابراهيم والرسل من ذريته فقط كما يفهمون من كتب أهل الكتاب والافرنج ، فهم يكتبون هذا في الصحف وفي أسفار التاريخ وفيما يسمونه فلسفة الدين أو فلسفة التفكير ، فهم يزعمون ان البشر نشئوا على الاديان الوثنية حتى كان اول من دعاهم الى التوحيد ابراهيم عليه السلام من زهاء أربعة آلاف سنة ، والقرآن حجة عليهم بتصريحه ان الله تعالى أرسل في جميع الامم رسلا دعوهم إلى التوحيد أولهم نوح عليه السلام ، فان قومه كانوا أول من عبد الصالحين الميتين واتخذوا لهم الصور والاصنام ، وكان البشر قبلهم على الفطرة توحيد آدم عليه السلام(١)

(فان قيل) ان يوسف عليه السلام لم يدع صاحبيه في السجن وسائر من كان معهما فيه إلى غير التوحيد من شرع آبائه فما سبب ذلك ؟ (قلت) ان أهل مصر كانوا أصحاب شريعة تامة لم يبعث لنسخها ولا لتغييرها ، وهي في الاصل سماوية وإنما طرأت الوثنية على توحيدهم لله تعالى وأحدثوا تقاليد خيالية في البعث ، فهو قد دعاهم الى أصل الدين الذي كان عليه جميع رسل الله وهو التوحيد والآخرة وما فيها من الحساب والجزاء ، وقد طرأ عليها عندهم ما أشرنا اليه آنفا في تفسير قوله

(١) عند كتابة هذا جاء الجزء ٦:٨ من مجلة الشبان المسلمين التي صدرت في شهر المحرم سنة ١٣٣٤ فاذا فيه مقالة عنوانها (الاسلام منذ ٨٠٠٠ سنة في وادي النيل) ذكر فيها كاتبها ان سكان مصر الاولين كانوا قبائل همجية على الفطرة وان الوافدين اليها من غرب آسية (اي بلاد العرب) كانوا على شيء من المعارف الدينية وغيرها وهم الذين ادخلوها الى هذه البلاد واهمها التوحيد والبعث

(وهم بالاخرة هم كافرون) يعني كفرهم بأن الجزاء يكون في عالم آخر بعد فناء هذه الاجساد وبعثهم في نشأة أخرى لا في هذه الدنيا كما يزعمون ، وعقائدهم في هذه المسألة مدونة في التاريخ المأخوذ من آثار الفراعنة وأشهرها انهم كانوا يحنطون أجسادهم لاجل أن تعود اليها الحياة التي فارقتها ، وكان ملوكهم يحفظون في أهرامهم وغيرها من قبورهم حليهم وحللهم ومتاعهم لاجل أن يتمتعوا بها في (٥) النشأة الاخرى حيث يعودون ملوكا كما كانوا ، فهذه أباطيل طرأت على العقائد الاصلية المنزلة ، وتقاليدهم هذه منقوشة من مواضع من الاهرام وتوابيت الموتى وصفائح القبور ، ومنها ما هو خاص بنعيم العوام ومنه أنهم يتشكلون بالصور التي يحبونها . وتشكل الارواح في الصور هو الاصل العلمي المعقول لعقيدة البعث في هيكل أثيري يلبس جسدا كثيفاً كالجسد الدنيوي كما روي عن الامام مالك رحمه الله ، (١٠) ومنه ما صح في الحديث من تشكل أرواح الشهداء في صور طير خضر تسرح في الجنة . وانما يكون التشكل على أكمله في الجنة جعلنا الله من خير أهلها

وأما الركن الثالث من دين الرسل وهو العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات فكان يوسف عليه السلام يكتفي منه بما كان خير قدوة فيه كما علم من قصته في بيت وزير البلاد وفي السجن ثم في ادارته لأمور الملك ، وكان يقرهم على سائر (١٥) شريعتهم كما سيأتي في احتياله على أخذ أخيه الشقيق بمقتضى شريعتهم الاسرائيلية بقول الله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) الخ وبعد أن أدى يوسف رسالة ربه عبر لصاحبيه رؤياهما بقوله

(٤١) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ، وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ، قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي (٢٠) فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤٢) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ

﴿ تأويله لمنامي صاحبي السجن ووصيته للناجي منهما ﴾

٤١ ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا ﴿فيسقي ربه خمراً ﴾ يعني يربه مالك رقبته وهو الملك لا ربوبية العبودية فملك مصر في عهد يوسف لم يدع الربوبية والالوهية كفرعون موسى وغيره، بل كان من ملوك العرب الرعاة الذين ملكوا البلاد عدة قرون ﴿ وأما الآخر ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل خبزا تأكل الطير منه ﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ اي الطير التي تأكل اللحوم كالحدأة، وهذا التأويل قريب من أصل رؤيا كل منهما وقد يكون من خواطرهما النومية وتأويلهما على كل حال من مكاشفات يوسف ويؤكدها قوله ﴿ قضي الامر الذي فيه تستفتيان ﴾ فهذا نبأ زائد على تعبير رؤياهما ورد مورد الجواب عن سؤال كان يخطر ببالهما أو أسئلة في صفة ذلك التعبير وهل هو قطعي أم ظني يجوز غيره ومتى يكون؟ فهو يقول لهما ان الامر الذي يهمكما أو يشكل عليكما وتستفتياني فيه قد قضي وبت فيه وانتهى حكمه . والاستفتاء في اللغة السؤال عن المشكل المجهول ، والفتوى جوابه سواء أكان نبأ أم حكما ، وقد غلب في الاستعمال الشرعي في السؤال عن الاحكام الشرعية ، ومن الشواهد على عمومه (افتوني في رؤياي) وهي مشتقة من الفتوّة الدالة على معنى القوة والمضاء والثقة

قلت ان هذه الفتوى من يوسف عليه السلام زائدة على ما عبر به رؤياهما داخلة في قسم المكاشفة ونبأ الغيب مما علمه الله تعالى وجعله آية له ليثقوا بقوله وهم أولو علم وفن وسحر، ومعناها انه علم بوحي ربه أن الملك قد حكم في امرهما بما قاله لا من باب تأويل الرؤيا على تقدير كون ما رأيا من النوع الصادق منها لا من أضغاث الاحلام [وسنبين الفرق بينهما في التفسير الاجمالي لكليات السورة ان شاء الله تعالى]

٤٢ ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما ﴾ وهو الذي اول له رؤياه بأنه يسقي ربه خمرا ، وتأويلها يدل على نجاته دلالة ظنية لا قطعية ، فان كانت فتواه بعده عن وحي نبوي كما رجحنا لا تتمة لتأويلها فيجوز أن يكون التعبير عن نجاته

بالظن لان ما علم من قضاء الملك بذلك يحتمل ان يعرض ما يحول دون تنفيذه ، وقد بينا في الكلام على رؤيا يوسف ومافهمه أبوه منها من أمر مستقبله ان علم الانبياء ببعض الامور المستقبلة إجمالي الخ وقال جمهور المفسرين ان الظن هنا بمعنى العلم وفي هذه الدعوى نظر وقد بينا تحقيق الحق في الفرق بين الظن والعلم لغة واصطلاحا في موضع آخر فلا محل لاعادته هنا ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي عند سيدك الملك بما رأيت وسمعت وعلمت من أمري عسى أن ينصفني ممن ظلموني ويخرجني من السجن ، وهذا الذكر يشمل دعوته إياهم إلى التوحيد وتأويله للرؤيا وإنباءهم بكل ما يأتيهم من طعام وغيره قبل إتيانه، وآخره فتواه الصريحة فهي جديرة بأن تذكره به كلما قدم للملك شرابه ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أي أنسى الساقي تذكر ربه وهو أن يذكر يوسف عنده على حد (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ منسيا مظلوما ، والفاء على هذا للسببية وهو المتبادر من السياق ، والجاري على نظام الاسباب ، ويؤيده قوله تعالى الآتي قريبا (وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة) أي تذكر ، إلا أن هذا الاستعمال يحتاج الى حذف وتقدير. ووجهوه بأنه أضاف المصدر اليه لملابسته له، أو انه على تقدير : ذكر إخبار ربه ، فحذف المضاف وهو كثير كما ان الاضافة لأدنى ملابسة كثير في كلامهم

وقيل ان المعنى ان الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه وهو الله عز وجل فعاقبه الله تعالى بابقائه في السجن بضع سنين(١) وقالوا إن ذنبه الذي استحق عليه هذا العقاب انه توسل الى الملك لاخراجه ولم يتوكل على الله عز وجل ، وجاؤا عليه بروايات لا يقبل في مثلها إلا الصحيح المرفوع أو المتواتر منه، لانها تتضمن الطعن في نبي مرسل ، ولكن قبلها على علاتها الجمهور كعادتهم وهو خلاف الظاهر من وجوه:

(الاول) عطف الانساء على ما قاله للساقي بالفاء يدل على وقوعه عقبه ، ومفهومه أنه كان ذاكرا لله تعالى قبله الى أن قاله فلو كان قوله ذنبا عوقب عليه لوجب

(١) استشهدت بهذا القول المشهور في تفسير (إنه ربي أحسن مثواي) وهو خطأ

أن يعطف عليه بجملة حالية بأن يقال: وقد أنساه الشيطان ذكر ربه — أي في تلك الحال — فلم يذكره بقلبه ولا بلسانه، فاستحق عقابه تعالى باطالة مكثه على خلاف ما أراده من ملك مصر وحده

(الثاني) أن اللائق بمقامه أن لا يقول ذلك القول إلا من باب مراعاة سنة الله تعالى في الاسباب والمسببات كما وقع بالفعل فانه ما خرج من السجن إلا بأمر الملك، وما أمر الملك باخراجه إلا بعد أن أخبره الساقي خبره، وما آتاه ربه من العلم بتأويل الرؤى وبغير ذلك مما وصاه به يوسف، فاذا كان قد وصاه بذلك ملاحظا انه من سنن الله في عباده متذكراً ذلك وهو اللائق به، فلا يعقل أن يعاقبه ربه تعالى عليه، وعطف الانساء بالفاء يدل على وقوعه بعد تلك الوصية فلا تكون هي ذنبا ولا مقترنة بذنب فيستحق عليها العقاب

(الثالث) إذا قيل سلمنا انه كان ذاكراً لربه عند ما أوصى الساقي ما أوصاه به ولكنه نسيه عقب الوصية واتكل عليها وحدها (قلنا) إن زعمتم انه نسي ذلك في الحال واستمر ذلك النسيان مدة ذلك العقاب وهو بضع سنين أو تتمتها كنتم قد اتهمتم هذا النبي الكريم تهمة فظيعة لا تليق بأضعف المؤمنين ايمانا، ولا يدل عليها دليل، بل يبطلها وصف الله له بأنه من المحسنين ومن عباده المخلصين المصطفين، وبأنه غالب على أمره، وانه صرف عنه السوء والفحشاء، وكيد النساء

وإن زعمتم أن الشيطان أنساه ذكر ربه برهة قليلة عقب تلك الوصية ثم عاد إلى ما كان عليه من مراقبته له عز وجل وذكره فهذا النسيان القليل، لا يستحق هذا العقاب الطويل، ولم يعصم من مثله نبي من الانبياء كما يعلم من الوجهين الرابع والخامس

(الرابع) جاء في نصوص التنزيل في خطاب الشيطان (١٥: ٤٢ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) وقال تعالى (٧: ٢٠١ ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فالتذكر بعد النسيان القليل من شأن أهل التقوى

(الخامس) ان النسيان ليس ذنبا يعاقب الله تعالى عليه، وقد قال تعالى لخاتم

النبيين (٦:٦٨ وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) يعني الذين أمره بالاعراض عنهم إذا رآهم يخوضون في آيات الله

(السادس) إنهم ما قالوا هذا إلا لأنهم رووا فيها حديثا مرفوعا على قلة جرأة الرواة على الاحاديث المرفوعة المسندة في التفسير وهو ما أخرجه ابن جرير الطبري في تفسير الآية عن سفيان بن وكيع عن عمرو بن محمد عن ابراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا قال قال النبي ﷺ « لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله » ونقول ان هذا الحديث باطل ، قال الحافظ ابن كثير وهذا الحديث ضعيف جداً : سفيان بن وكيع ضعيف وابراهيم بن يزيد هو الجوزي أضعف منه أيضا . وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما . وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن والله أعلم اه

وأقول أولا إن ما قاله في هذين الراويين للحديث هو أهون ما قيل فيهما ومنه أنهما كانا يكذبان، وثانيا إنه يعني بقوله [ههنا] الطعن في نبي مرسل بأنه كان يبتغي الفرج من عند غير الله وهو الجدير بأن لا تحجبه الاسباب الظاهرة عن واضعها ومسخرها وخالقها عز وجل . ويعني بقوله [لو قبل المرسل من حيث هو] ما هو الصحيح عند علماء الاصول وهو عدم الاحتجاج بالمراسيل . وسنتكلم على المراسيل في التفسير في الكلام الاجمالي عن روايات هذه السورة وأمثالها في الخلاصة الاجمالية لتفسيرها ان شاء الله تعالى ، وما رواه الكلبي وغيره عن وهب ابن منبه وكعب الاحبار من خطاب الله تعالى وخطاب جبريل ليوسف وتوبيخه على الاستشفاع بآدمي مثله فهي من موضوعات الراوي والمروي عنهما جزاهم الله ما يستحقون فتبين بهذا أن التفسير المأثور في الآية باطل رواية ودراية وعقيدة ولغة وأدبا

وقد اختلف المفسرون في مدة لبث يوسف في السجن بناء على الاختلاف في تفسير البضع واختلاف الرواة . فالتحقيق ان البضع من ثلاث الى تسع ، وأكثر ما يطلق على السبع ، وعليه الاكثرون في مدة سجن يوسف من أولها الى آخرها ، وما قالوه من أن السبع كانت بعد وصيته للساقي وانه لبث قبلها خمس سنين فلا دليل عليه

(٤٣) وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ
عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي
فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٤) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا
نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٥) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ
(٥) بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٦) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ
أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ
(٤٧) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ
(١٠) مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٩) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ

(رؤيا ملك مصر وتاويل يوسف لها بالقول والفعل)

كان ملك مصر في عهد يوسف من ملوك العرب المعروفين بالرعاة [الهكسوس] كما يأتي في التفسير الاجمالي ، وقد رأى رؤيا عجز رجال دولته من الوزراء والكهنة
(١٥) والعلماء عن تأويلها ، فكان عجزهم سبباً للجوء إلى يوسف عليه السلام واتصاله بالملك وتوليه منصب الوزير المفوض عنده كما بين في الآيات مبدأ وغاية، قال تعالى

٤٣ ﴿ وقال الملك ﴾ هذا السياق عطف على سياق صاحبي السجن وما قالاه في قص رؤاهما على يوسف ﴿ إني أرى ﴾ أي رأيت فيما يرى النائم رؤيا جلية ماثلة

أمامي كأني أراها الآن ﴿ سبع بقرات سمان ﴾ جمع سمينة وكذا سمين كما يقال رجال ونساء كرام وحسان ﴿ أكلهن سبع عجاف ﴾ أي سبع بقرات مهازيل في غاية الضعف والهزال، وهو جمع عجفاء سماعا لا قياساً فان جمع أفعل وفعلاء وزان فعل بالضم كحمر وخضر، وحسنه هنا مناسبته لسمان ﴿ وسبع سنبلات خضر ﴾ عطف على سبع بقرات وهي جمع سنبلة كقنفذة ما يخرجه الزرع كالقمح والشعير فيكون فيه الحب (٥) ﴿ وأخر يابسات ﴾ عطف على ما قبله، واليابس من السنبل ما آن حصاده، واستغني عن إعادة سبع هنا بدلالة مقابله في البقرات عليه ﴿ يا أيها الملأ ﴾ يخاطب رجال دولته وأشراف قومه ﴿ أفتوني في رؤياي ﴾ ما معناها وما تدل عليه فيكون ما آلا لها ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ أي تعبرونها ببيان المعنى الحقيقي المراد من المعنى الخيالي، كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة الى أخرى فاللام فيها للبيان والتقوية، (١٠) فعبرها وعبورها بمعنى تأويلها وهو الاخبار بما آلها الذي يقع بعد

٤٤ ﴿ قالوا أضغاث أحلام ﴾ أي هي أو هذه الرؤيا من جنس أضغاث الاحلام أي الاحلام المختلطة من الخواطر والأخيلة التي يتصورها الدماغ في النوم فلا ترمي إلى معنى مقصود، وأصل الاضغاث جمع ضغث بالكسر وهو الحزمة من النبات أو العيدان، والاحلام جمع حلم بضمتين ويسكن للتخفيف وهو ما يرى في النوم. يقال (١٥) حلم كنصر واحتلم، ومنه بلوغ الحلم، والحلم قد يكون واضح المعنى كالافكار التي تكون في اليقظة وقد يكون - وهو الاكثر - مشوشا مضطربا لا يفهم له معنى وهو الذي يشبه بالتضاغيث كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التي لا تناسب بينها، وهو ما تبادر الى أفهامهم من نوعي البقر والسنابل ﴿ وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين ﴾ يحتمل قولهم هذا انهم ليسوا بأولي علم بتأويل هذه (٢٠) الاحلام المختلطة المضطربة وانما يعلمون تأويل غيرها من المنامات المعقولة المفهومة، ويحتمل نفي العلم بجنس الاحلام لانها مما لا يعلم أو مما لا يكون له معنى بعيد تدل عليه الصور المتخيلة في النوم وتنتهي اليه، كما ينكر أهل العلم المادي الآن أن

يكون لشيء من هذه الرؤى والاحلام تأويل صحيح ، ولكن قدماء المصريين كانوا يعنون بها . وسنبين الحق في ذلك في الخلاصة الكلية لتفسير السورة كما تقدم

٤٥ ﴿ وقال الذي نجا منهما ﴾ أي من صاحبي السجن وهو الساقي أحد أركان القصة ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ أي والحال انه تذكر بعد طائفة طويلة من الزمن

(٥) وصية يوسف اياه بأن يذكره عند سيده الملك فأنساه الشيطان ذلك (وأصل ادكر اذتكر ـ افتعال من الذكر أبدلت تاؤه دالا مهملة لقرب مخرجها وأدغمت فيها الذال المعجمة ، وهو الفصيح ، وقرىء في الشواذ بالذال المعجمة وهي لغة ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أي أخبركم به أو بمن عنده علم تأويله ﴿ فأرسلون ﴾ اليه أو الى السجن فهو فيه ، وروي عن ابن عباس ان السجن كان خارج البلد . وفي خطط المقريزي :

(١٠) قال القضاعي سجن يوسف ببوصير من عمل الجيزة أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين أحدهما يوسف سجن فيه المدة التي ذكر أن مبلغها سبع سنين ، والآخر موسى ، وقد بني على أثره مسجد يعرف بمسجد موسى الخ وأمثال هذه الاخبار لا يوثق بها

٤٦ ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ أي قال فأرسلوني اليه فأرسلوه إليه فجاءه فاستفتاه

(١٥) فيما عجز عنه الملأ من تأويل رؤيا الملك ، مناديا له باسمه وما ثبت عنده من لقبه [الصديق] وهو الذي بلغ غاية الكمال بالصدق في الاقوال والافعال وتأويل الاحاديث وتعبير الاحلام ، شارحا له رؤيا الملك بنصها ـ وهو بسط في محله بعد إيجاز في محله ـ قائلا ﴿ أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ وعلل هذا الاستفتاء بما يرجو أن يحقق ليوسف أمله بالخروج

(٢٠) من السجن وانتفاع الملك وملئه بعلمه فقال ﴿ لعلي أرجع الى الناس ﴾ أولي الامر ، وأهل الحل والعقد ، بما تلقيه إلي من التأويل والرأي ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ مكانتك من العلم فينتفعون به ، أو يعلمون ما جهلوا من تأويل رؤيا الملك وما يجب أن يعملوا

بعد العلم به ، فلعل الاولى تعليل لرجوعه اليهم بافتائه ، ولعل الثانية تعليل لما يرجوه من علمهم بها ، والرجاء توقع خير بوقوع أسبابه

٤٧ ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا ﴾ أي قال يوسف مبينا للملأ ما يجب عليهم عمله لتلافي ماتدل عليه هذه الرؤيا من الخطر على البلاد والعباد قبل وقوع تأويلها الذي بينه في سياق هذا التدبير العملي ، وهذا ضرب من بلاغة الاسلوب والايجاز ، لاتجد له ضريبا في غير القرآن ، خاطب أولي الأمر بما لقنه للساقي خطاب الآمر للمأمور الحاضر ، فأوجب عليهم الشروع في زراعة القمح دائبين عليه دأبا مستمرا كما قال تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) سبع سنين بلا انقطاع . قال الزمخشري [تزرعون] خبر في معنى الامر كقوله تعالى (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون) وإنما يخرج الامر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به ، فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه في معنى الامر قوله ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله ﴾ أي فكل ما حصدتم منه في كل زرعة فاتركوه أي ادخروه في سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة اليه ، الحب لغذاء الناس والتبن لغذاء البهائم والدواب : ﴿ إلا قليلا مما تأكلون ﴾ في كل سنة من هذه السنين مع مراعاة القصد والاكتفاء بما يسد حاجة الجوع فان الناس يقنعون في سني الخصب والرخاء بالقليل ، فهذه السنين السبع تأويل للبقرات السبع السمان ، والسنبلات السبع الخضر على ظاهرها في كون كل سنبلة تأويلا لزرع سنة

٤٨ ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ﴾ أي سبع سنين شداد في محلهن وجدبهن ﴿ يأكلن ماقدمتم لهن ﴾ أي يأكل أهلهن كل ماقدمتم لهم ، وهو من إسنادهم الى الزمان والدهر ما يقع فيه ، ويكثر إسناد العسر والجوع الى سني الجدب : يقال أكلت لنا هذه السنة كل شيء ولم تبق لنا خفا ولا حافرا ، ولا سبدا ولا لبدا . أي لاشعرا ولا صوفا . وهذا تأويل للبقرات السبع العجاف وأكلهن للسبع السمان ، وللسنبلات اليابسات ﴿ الا قليلا مما تحصنون ﴾ أي تحرزون وتدخرون للبذر

٤٩ ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ الذي ذكر وهو السبع الشداد ﴿ عام فيه يغاث الناس ﴾ أي فيه يغيثهم الله تعالى من الشدة أتم الاغاثة وأوسعها وهي تشمل جميع أنواع المعونة بعد الشدة : يقال غاثه يغوثه غوثا وغواثا (بالفتح) وأغاثه إغاثة اذا أعانه ونجاه ، وغوّث الرجل : قال « واغوثاه » واستغاث ربه (٥) استنصر وسأله الغوث ، ويجوز أن يكون من الغيث وهو المطر اذ يقال غاث الله البلاد غيثا وغياثا اذا أنزل فيها المطر ، والاول أعم وهو المتبادر هنا ، ولا يقال ان الثاني لايصح ، لان خصب مصر يكون بفيضان النيل لا بالمطر فان فيضانه لايكون الا من المطر الذي يمده في مجاريه من بلاد السودان ، فاعتراض بعض المستشرقين من الافرنج وزعمه أن الكلمة من الغيث وأنها غير جائزة جهل (١٠) زينه لهم الشيطان تلذذاً بالاعتراض على لغة القرآن ﴿ وفيه يعصرون ﴾ ماشأنه أن يعصر من الأدهان التي يأتدمون بها ويستصبحون كالزيتون والقرطم وغيره ، والشيرج من السمسم وغير ذلك ، والاشربة من القصب والنخيل والعنب . والمراد ان هذا العام عظيم الخصب والاقبال ، يكون للناس فيه كل مايبغون من النّعمة والاترافه ، والانباء بهذا زائد على تأويل الرؤيا لجواز أن (١٥) يكون العام الاول بعد سني الشدة والجدب دون ذلك ، فهذا التخصيص والتفصيل لم يعرفه يوسف إلا بوحي من الله عز وجل لامقابل له في رؤيا الملك ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل ، وقرأ حمزة والكسائي تعصرون بالخطاب كتزرعون وتحصنون ، وقراءة الجمهور عطف على يغاث الناس ، وفائدة القراءتين ، بيان المنة على الفريقين من غائب محكي عنه ، وحاضر مخاطب بما يكون منه

(٢٠) (٥٠) وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ؟ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥١) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ

نَفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ
الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ
(٥٢) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ

طلب الملك ليوسف وتمكثه في الاجابة لأجل التحقيق في مسألة النسوة

من المعلوم بالبداهة ان الرسول بلغ الملك وملأه ماقاله له يوسف عليه السلام (٥)
وأنهم فهموا منه أن الخطب جلل ،وان هذا الرجل ذو علم واسع ،وتدبير لايستغنى
عنه فيما يصفه من حالي السعة والشدة، وقد طوي ذلك ايجازا لانه يعلم من قوله تعالى
٥٠ ﴿ وقال الملك ائتوني به ﴾ لأسمع كلامه بأذني ، وأختبر تفصيل رأيه
ودرجة عقله بنفسي ﴿فلما جاءه الرسول ﴾ وبلغه أمر الملك ﴿ قال ارجع الى ربك
فاسأله ﴾ قبل شخوصي اليه ووقوفي بين يديه ﴿مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ (١٠)
أي ماحقيقة أمرهن معي، فالبال الامر الذي يهتم به ويبحث عنه ، فهو يقول سله
عن حالهن ليبحث عنه ويعرف حقيقته فلا أحب أن آتيه وأنا متهم بقضية عوقبت
عليها أو عقبها بالسجن وطال مكثي فيه وأنا غير مذنب فأقبل منه العفو ﴿ إن ربي
بكيدهن عليم ﴾ وقد صرفه عني فلم يمسني منه سوء معهن، وربك لايعلم ماعلم ربي منه ،
وفي هذا الحديث والسؤال فوائد جليلة في أخلاق يوسف عليه السلام وعقله (١٥)
وأدبه في سؤاله (منها) دلالته على صبره وأناته، وجدير بمن لقي مالقي من الشدائد
أن يكون صبورا حليما ، فكيف إذا كان نبياً وارثاً لابراهيم الذي وصفه الله بالاواه
الحليم ؟وفي حديث أبي هريرة في المسند والصحيحين مرفوعا « ولو لبثت في السجن
مالبث يوسف لأجبت الداعي» وفي لفظ لاحمد «لو كنت أنا لأسرعت الاجابة
وما ابتغيت العذر» وأما ما رواه عبد الرزاق عن عكرمة في تعجب النبي من صبره (٢٠)
وكرمه وكونه لو كان مكانه لما أول لهم الرؤيا حتى يشترط عليهم أن يخرجوه من

السجن ، ولو أتاه الرسول لبادرهم الباب .. فهو مرسل لا يحتج به

(ومنها) عزة نفسه وحفظ كرامتها إذ لم يرض أن يكون متهما بالباطل حتى يظهر براءته ونزاهته (ومنها) وجوب الدفاع عن النفس وإبطال التهم التي تخل بالشرف كوجوب اجتناب مواقفها (ومنها) مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء
(٥) من الطعن على النسوة وترك أمر التحقيق إلى الملك يسألهن ما بالهن قطعن أيديهن وينظر مايجبن به (ومنها) أنه لم يذكر سيدته معهن وهي أصل الفتنة وفاء لزوجها ورحمة بها لان أمر شغفها به كان وجدانا قاهرا لها ، وإنما اتهمها أولا عند وقوفه موقف التهمة لدى سيدها وطعنها فيه دفاعاً عن نفسه ، فهو لم يكن له بد منه

٥١ ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ الخطب الشأن العظيم
(١٠) الذي يقع فيه التخاطب والبحث لغرابته أو إنكاره ومنه قول ابراهيم للملائكة (فما خطبكم أيها المرسلون) وقول موسى في قصة العجل (فما خطبك ياسامري؟) وقوله للمرأتين اللتين كانتا تذودان ماشيتهما عن مورد السقيا (ماخطبكما) وهذه الجملة بيان لجواب سؤال مقدر دل عليه السياق كأمثاله . والمعنى ان الرسول بلغ الملك قول يوسف وأنه لا يخرج من السجن استجابة لدعوته حتى يحقق مسألة النسوة ، فجمعهن
(١٥) وسألهن : ماخطبكن الذي حملكن على مراودته عن نفسه هل كان عن ميل منه اليكن ، ومغازلة لكن قبلها ، وهل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها ؟ أم ماذا كان سبب إلقائه في السجن مع الخجرمين ؟ ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أي معاذ الله ما علمنا عليه أدنى شيء يشينه ويسوءه لا كبير ولا صغير ، ولا كثير ولا قليل ، هذا ما يدل عليه نفي العلم مع تنكير سوء ودخول « من » عليها وهو أبلغ من نفي
(٢٠) رؤية السوء عنه ﴿ قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق ﴾ أي ظهر بعد خفائه وانحسرت رغوة الباطل عن محضه ، وهو تكرار من حصه إذا قطع منه حصة بعد حصة (بالكسر) وهي النصيب لكل شريك في شيء ، مثل كبكب وكفكف الشيء إذا كبه وكفه مرة بعد أخرى ، فهي تقول ان الحق في هذه القضية كان في رأي الذين يلمهم موزع التبعة بيننا معشر النسوة وبين يوسف ، لكل منا حصة ، بقدر ماعرض فيها من شبهة ، والآن قد ظهر الحق في جانب واحد لا خفاء فيه ولا شبهة عليه ، فان كان

واذلي شهدن بنفي السوء عنه وهي شهادة نفي، فشهادتي له على نفسي شهادة إثبات ؟

﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ وهو لم يراودني ، بل استعصم وأعرض عني ﴿ وانه لمن صادقين ﴾ فيما اتهمني به من قبل، وحمله أدبه الأعلى ووفاؤه الاسمى لمن أكرم مثواه أحسن اليه — على السكوت عنه إلى الآن ، ونحن جزيناه بالسيئة على الاحسان ، قد أقر الخصم وارتفع النزاع (٥)

٥٢ ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ أي ذلك الاقرار بالحق له، والشهادة بصدق الذي علمته منه، ليعلم الآن — إذ يبلغه عني — أني لم أخنه بالغيب عنه منذ سجن إلى الآن بالنيل من أمانته ، أو الطعن في شرفه وعفته ، بل صرحت لجماعة النسوة بأني راودته فاستعصم وهو شاهد ، وها أنا ذا أقر بهذا أمام الملك وملائه وهو غائب،

﴿ وان الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ من النساء والرجال، بل تكون عاقبة كيدهن (١٠) الفضيحة والنكال، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا، وسجناه فبرأه وفضح مكرنا ، حتى شهدنا له في هذا المقام السامي على أنفسنا ، وهذا تعليل آخر لاقرارها

ثم إنها على تبرئة نفسها من خيانته بالغيب اعترفت في الآية التالية بأنها لا تبرئ نفسها من الكيد له بالسجن ، وان ذلك كان من هوى النفس الامارة بالسوء ، ان المراد منه تذليله لها ، وحمله على طاعتها ، (١٥)

وفيها وجه آخر وهو انها تقول : ذلك الذي حصل أقررت به ليعلم زوجي أني لم أخنه بالفعل فيما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا ، وأن كل ما وقع أنني راودت هذا الشاب الفاتن الذي وضعه في بيتي ، وخلى بينه وبيني ، فاستعصم وامتنع ، فبقي عرضه أي الزوج مصونا ، وشرفه محفوظا، ولئن برأت يوسف من ذلك ثم فما أبرئ منه نفسي ، فان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي، وسيأتي ان (٢٠) الله برحمته تعالى ببعض الأنفس صرفها عن الامر السوء وهو أعلى الدرجات، ومنها حفظه إياها من طاعة الامر بوازع منها، وهي دون ما قبلها ، ومنها عدم تيسر عمل السوء، بامتناع من يتوقف عليه ذلك العمل على حدّ (ان من العصمة ألا تجد)

هذا هو المتبادر من نظم الآيتين المناسب للمقام بغير تكلف، ولكن ذهب الجمهور

اتباعا الروايات الخادعة الى أنها حكاية عن يوسف عليه السلام بقول: ذلك الذي كان مني إذ امتنعت من إجابة الملك واقترحت عليه التحقيق في قضية النسوة ليعلم العزيز من التحقيق أني لم أخنه في زوجه بالغيب الخ وانه صرح بعد ذلك بأنه لا يبرىء نفسه من باب التواضع وهضم النفس، وهذا المعنى يتبرأ منه السياق والنظم ومرجع
(٥) الضمير. ومن العجب ان ابن جرير اقتصر عليه، ولكن قال العماد ابن كثير على كثرة اعتماده عليه مرجحا للقول الاول: وهذا هو القول الاشهر والاليق والانسب بسياق القصة ومعاني الكلام وقد حكاه الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الامام ابو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة اهـ. وشيخ الاسلام ابن تيمة من أعلم المحدثين بنقد الروايات فهو ما نصر هذا القول إلا وقد فند روايات القول الآخر

(١٠) وقد علم من جملة الكلام أن يوسف عليه السلام كان مثل الكمال الانساني الاعلى للاقتداء به في العفة والصيانة، لم يمسه أدنى سوء من فتنة النسوة، وان امرأة العزيز التي اشتهرت في نساء مصر بل نساء العالم بسوء القدوة في التاريخ القديم والحديث كان أكبر اثمها على زوجها، وكانت هي ذات مزايا في عشقها الذي كان اضطراريا لا علاج له إلا الحيلولة بينها وبين هذا الشاب الذي بلغ منتهى الكمال في الحسن والجمال،

(١٥) فمن مزاياها انها لم تتطلع إلى غيره من الرجال إجابة لداعية الجنسية للتسلي عنه بعد اليأس منه، وانها لم تتهمه بالجنوح للفاحشة قط. وكل ما قالته لزوجها إذ فاجأهما لدى الباب (ما جزاء من اراد بأهلك سوءا) تعني به همه بضربها، وانها في خاتمة الامر أقرت بذنبها في مجلس الملك الرسمي ايثاراً للحق وإثباتا لبراءة المحق، فأية مزايا أظهر من هذه لمن ابتليت بمثل هذا العشق؟ وفي تاريخ الفردوسي

(٢٠) أديب الفرس أنه صنف قصة غرامية في زليخا ويوسف صور فيها العفة بأجمل صورها، وزليخا (بالفتح) اسم امرأة العزيز في أشهر تواريخنا وقيل إن اسمها راعيل. وسنفصل العبر في القصة، في التفسير الاجمالي للسورة إن شاء الله تعالى

﴿ تم تفسير الجزء الثاني عشر في العشر الاخير من المحرم سنة ١٣٥٤ ﴾

وكان البدء به في صفر سنة ١٣٥٣ والله نسأل توفيقنا لاتمام

سائر هذا التفسير بما يرضاه وله الحمد والمنة